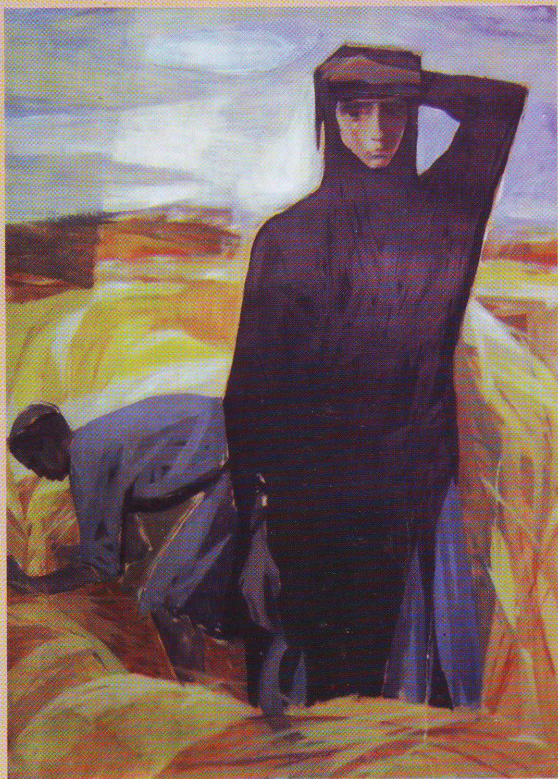


شمران الياسري (ابو كاطع)



رواية غنم الشيوخ

الكتاب : غنم شيوخ

المؤلف : شمران الياسري

الناشر : شركة الرواد المزدهرة للطباعة

والنشر والتوزيع المحدودة

الطبعة الاولى منشورات الثقافة الجديدة ١٩٧٢

الطبعة الثانية الرواد ٢٠٠٧

العراق / بغداد / الرواد



نبذة عن حياة المؤلف :

* في بيئة ريفية بمحافظة واسط - قضاء الحي - ولد
شمران يوسف الياسري في نهاية عشرينيات القرن
الماضي

* عائلته متمهن الزراعة ، لكنها لم تكن تملك الارض ،
الأن نحداره من اسرة علوية (من السادة) أعطى
عائلته مركزاً مرموقاً ووجاهة اجتماعية في المحيط

الذي يعيش فيه ومنحة تعاملاً خاصاً من ملاك الارض والفلاحين على حد سواء .

* لم يدخل شمران الياسري المدارس الحكومية وانما درس في الكتاتيب (الملا)
وحفظ القرآن على يد والدته ، لكن رصيده التعليمي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل دفعه
ولعه ورغبته في التعلم أن يعتمد على نفسه ويواصل القراءة الخارجية .
* اتصل بالمتقنين من أهل المدن القريبة ، وفي مقاييس ذلك الزمان فأن المعلمين هم
رموز الثقافة والعلم .

* كانت له زيارات الى بغداد ، حيث أحتك بأهل الفكر والسياسة ، الأمر الذي حفزه
أكثر لزيادة رصيده المعرفي . وبالفعل فقد اصبحت معلوماته في القراءة والكتابة
لا تقل عن خريجي المدارس الثانوية ، بل تفوقهم ، عندها أشار عليه بعض اصدقائه
المقربين أن يقدم امتحاناً خارجياً ، وكان أن اجتازه بنجاح .

— بدأ يتعلم اللغة الانكليزية ويأخذ دروساً خصوصية فيها ، إضافة الى تعلم مبادئ
المحاسبة ومسك الدفاتر (البلانجو) الذي أهله في فترة لاحقه للعمل لدى بعض المحال
التجارية بصفة محاسب .

— كان لديه مشروع للدراسة في الجامعة ، لكن انغماسه في العمل السياسي و
الصحفي و الظروف التي تضطره بعض الاحيان للأختفاء ، منعتة من تحقيق هذا
المشروع .

— أصبح شمران الياسري الشاب القادم من الريف ، متفقاً من الطراز الاول ،

يلتهم الكتب بشغف ، ويقبل على قراءة كل مطبوع يتوفر له سواء في مجالات الادب والثقافة ، اضافة للسياسة.

* انتقل شمران الياسري الى العاصمة بغداد ، وبدأ يكتب في عدة صحف .
* انتسب الى نقابة الصحفيين واتحاد الادباء ، واصبح لديه عمود يومي يكتبه في جريدة طريق الشعب .

* كان الغالب على نتاجاته ، الهموم الفلاحية ومشكلات الريف ، اما برنامجه الاذاعي (احببها بصراحة بيو غاطع) فقد كان خطأً أو فتحاً جديداً في مجال البرامج الشعبية ، بل يمكن وصفه بأنه عمل ريادي في مجال البرامج الجماهيرية فهو برنامج ناقد وساخر يترقبه الجميع سواء كانوا من ابناء الريف او المدينة .

* عمل شمران الياسري في عدة صحف ومجلات منها : صوت الاحرار ، البلاد ، الحضارة ، الثقافة الجديدة ، الفكر الجديد .

* درس الصحافة في سنوات السبعينيات من خلال دورات صحفية في معهد الصحافة بألمانيا الديمقراطية .

* تعرض شمران الياسري للملاحقة والاعتقال عدة مرات وتقل بين سجن بغداد المركزي ، وبعقوبة ، والعمارة نتيجة توقيعه على مذكرة نداء السلم في كردستان .
* غادر العراق عام ١٩٧٦ متخفياً وسافر الى أوربا ليعمل مندوباً لوكالة الانباء الفلسطينية في (براغ) وتوفي هناك في حادث سير .

* توفي الروائي شمران الياسري في يوم ١٧/٨/١٩٨١ بعيداً عن وطنه وأسرته ، وقد اوصى قبل وفاته بأن يُدفن في مقبرة الشهداء الفلسطينيين ببירות كي يقترب أكثر من العراق ، ولكي يجنب أسرته وأصدقائه مما قد يتعرضون اليه من قبل السلطة آنذاك ، باعتباره كان مطلوباً لها ، وهدفاً ينوون تصفيته ..

* ومع انغماس (ابو غاطع) في العمل الصحفي ، الا أنه كان يردد باستمرار .. الرواية .. الرواية .. أنني اعشق العمل الروائي .. وبالفعل ، فقد كانت باكورة عمله الروائي هذه الرباعية .. التي تضعها مطبعة الرواد بين ايدي القراء باجزاءها الاربعة .

شركة دار الرواد المزدهرة
للطباعة والنشر المحدودة

غنم الشيوخ

شمران الياسري

رواية
غزىم الشيوخ

الجزء الثالث من الرباعية

الطبعة الأولى ١٩٧٢

الطبعة الثانية ٢٠٠٧

تقديم

شمران الياسري.. مخاضة الفكر من الريف.

إذا كانت هذه الرواية قد بدأت من مضيف الشيخ (سعدون بن مهلهل) في ليلة من ليالي كانون الباردة، وبدأت في الزمان الذي أصبحت فيه ثورة العشرين عام ١٩٢٠ ذكرى قريبة، يتغنى العراقيون ببطولات ثوارها ، ويتحسرون على خسارتهم للمعركة أمام القوة الكبيرة للأنكليز، فأنها تنتهي قبل ان تسقط ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة ويتم اجهاضها عام ١٩٦٣ صريعة المؤامرة والفاشية، وفوضى الإدارة التي طبعت المراحل الأخيرة من عهدها ..

ولقد إختار الكاتب ان تنتهي الأحداث (المنشورة) من الرواية قبل يوم الثامن من شباط الاسود عام ١٩٦٣، لان الرواية نشرت في العراق، وفي ظل النظام المسؤول عن ذلك الحدث الاسود.. ولكنه (المؤلف) أكمل في روايته الثانية (قضية حمزه الخلف)، التي نشرت عام ١٩٨٣ بعد رحيله بعامين، احداث الانقلاب وما تلاها.. الامر الذي يجعل الرواية الاخيرة جزءا اساسيا من الرباعية وخاتمتها التي جسدت بداعة المؤلف عندما يتحرر من قيود الرقابة ويقول الاشياء بمعانيها ومدلولاتها.

فقد كتب الرواية وهو في المنفى ونشرت بعد وفاته في بيروت، ووصلتنا

بعد ان عاد المنفيون عام ٢٠٠٣.

لقد أرخ هذا العمل المجيد لمرحلة حرجة من مراحل الدولة العراقية الحديثة

لاكثر من أربعة عقود، تتطور فيها سلطة الاقطاع بدعم ومباركة الانكليز والسلطة التابعة لهم، وتلقي بظلالها على ريف الوسط والجنوب -محور الرواية ومناخها-..

فالكاتب يؤرخ لمرحلة نشوء الاقطاع، وعلاقة ذلك بالانتكاسة التي تعرضت لها عشائر الفرات الاوسط (هذي دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشائر بدجله).. فلقد عاد (ابن طرفه) يحمل ألف روية هدية من الحاكم الانكليزي.. وما ان سمع الشيخ (سعدون بن مهلهل) بهذا الخبر، حتى بدت قضية الوصول الى الحاكم الانكليزي هاجسه الأعظم، والبداية لنشوء السلطة التي خلقتها الألف روية وتحالفاته مع أعداء الأمس.. ثم تعرض الرواية لوقائع سقوط الاقطاع على يد ثورة تموز المجيدة ونشوء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة .. تتجلى خلالها أخلاقيات وقيم المجتمع، وثبات بعضها وإنزواء الأخرى بسبب هذا الوضع الجديد .

لقد قدمت هذه الرواية المرحوم (شمران الياصري- ابوكاطع) ادبياً عظيماً عرفه العراقيون عبر قلمه الرائع وبرنامجها الاداعي الهائل الذي شغل الناس وحاز على اعجابهم ومتابعتهم.. وعندما بدأت جهود نشر الرواية، وهي جهود استمرت لأشهر لإقناع وزارة الثقافة والإعلام(سابقاً) لتعزید نشر الرواية، ثم اعتذارها لأسباب معروفة، تحول الهدف الى أن يتولى القراء تمويل النشر من خلال شراء الرواية مقدماً.. وهي تجربة فريدة في زمن كانت الدولة تطبع أوطأ الكتب قيمة ولعشرات الجهلة من الكتاب وأدعياء الثقافة.. فمثل هذا بحق تحدياً فطرياً من الجمهور المثقف لأعداء الثقافة والفكر الراقي.

لقد كتب المرحوم ابو كاطع هذه الرواية على ضوء الفانوس في الفترة التي تخفى فيها عن السلطة غداة انقلاب شباط , ١٩٦٣
كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب ويصحح ويعيد الكتابة.. وكان يقرأ مسوداتها لأصدقائه الذين يأتون لزيارته تحت جنح الليل، متخفين من عيون الشرطة وجواسيس السلطة.. فيتحاورون ويناقشون. وكان بعضهم شخوصا بالرواية وابطالاً لاحداث بعينها..

ان (الزناد) هو الاداة التي استطاع بها (ابن مهلهل) التغلب على الشخصية الاسطورية (خلف) وأستحوذ على (ديمته) مقابل هذا الزناد.. ولكن ذات (الزناد)، يستطيع ان يتسبب بحريق هائل ويُغيّر مجرى الاحداث، ويوقف ما لم يستطع (خلف) التغلب عليه، وهو البطل الهائل، والطيب حد السذاجة..

لقد عاش (ابوكاطع) في الريف، تعلّم منه ما لم يتعلمه في المدينة وفي المدارس والعمل السياسي..

إن ما تعلمه في الريف هو الذي كوّن شخصيته اللمّاحة التي إلتقطت واختزنت ألوف المشاهد والجزئيات التي يعجز المشاهد من خارج تلك البيئة ان يلتقطها. ولسوف يُعطي التأريخ لهذا الرجل البارع شهادة على انه تفرد حد الإبداع في عرض صورة للريف واخلاقيات أهله، ونمط تفاعلهم مع الحياة وتداعياتها بطريقة لم تتح لموهبة أخرى، وأجزم انها لن تتح في الزمن المنظور.

فالذي يعيش في أجواء هذه الملحمة الفاتنة التي تحكي قصة الشعب العراقي الساكن في الريف، لن يتمكن من مغادرة هذا الجو بسهولة..

وعندي أدلة على اصدقاء قرؤوا الرواية فحفظوا مقاطع طويلة منها، ومشاهدات وحوارات في قراءة أولى لها.. وعندما حاولت الاستيضاح عن هذه المقدره في الحفظ، قالوا بثقة (ان هذه الحوارات محظ حياتنا ونمط سلوكنا، ومن العجيب انها وضعت على الورق بهذه الامانة!!)..

ولم يترك المؤلف (شمران الياسري) بعض التفاصيل التي لا يمكن تصور وجودها في جو درامي مشتعل بالاحداث الكبيرة.. فقد غاص في تفاصيل الحياة العادية وفي الغزل والجنس المتمرد على حدود الذهن الريفي.. ووصف الكرم. يقابله البخل المفزع.. ولقد وصف ذكاء أهل الريف وسرعة بديهيتهم للحدود التي تقنع ابن المدينة الذي لم يعيش في بيئتهم.

لقد نشرت هذه الرواية، عام ١٩٧٢ ضمن منشورات مجلة "الثقافة الجديدة"، المجلة التي قادت الفكر العلمي والثقافة التقدمية، وما زالت تفعل ذلك بشرف وامانة.. وطبعتها مطبعة الشعب..

وخلال عام ٢٠٠٢، بعد سقوط نظام الحكم، كان المثقفون، وعامة الناس. يبحثون في شارع المتنبي عن الرباعية او عن بعض أجزاءها.. وكان اصحاب المكتبات يعرفونها تماما، ويرشدون الى النسخ المصورة منها والاماكن التي توجد فيها..

وخلال عام ٢٠٠٦، إتجهت مطبعة (الرواد) الى فكرة إعادة طبع الرواية، وهو حلم راود الكثير من محبي أدب (ابو غاطع)، وبعد أن بادرت وزارة الثقافة مشكورة الى اعادة طبع رواية (قضية حمزه الخلف) التي نشرت عام ١٩٨٢ بعد عقدين من الزمن..

ان مطبعة (الرواد) تقدم خدمة مجيدة للمكتبة العراقية عندما تعيد طبع

هذه الرواية، معرضة عن تفاصيل الكلفة واحتمالات الخسارة والريح، معتمدة بالدرجة الأساس على حقيقة ان هذا العمل الكبير يجب ان يكون في متناول القارئ، للتذكير بان الشعب العراقي. الذي خاض في الريف معركة التحرر من التخلف جنبا" الى جنب مع المدينة. بعمالها ومثقفها وطلابها. يستحق توثيق نضاله المجيد.. وللتأكيد على إن المكتبة العراقية لم تُغلق. وإن القارئ العراقي موجود. وعليك أن تسعى إليه وتقف ببابه. تقدم اليه المادة الجيدة في هذا الزمن العصيب.

ان رواية (شمران الياسري) (الرباعية) بأجزائها الاربعة (الزناد، بلابوش دنيا، غنم الشيوخ وفلوس أُحميد) تستحق القراءة، وتستحق التفكير الجدي بانتاجها كعمل سينمائي أو تلفزيوني أو اذاعي، لأنها ملحمة وطنية تقطعت انفاسنا ونحن نتابع بأهتمام شديد شخصها وأبطالها وهم يتحركون على مساحة زمنية وجغرافية وأخلاقية واسعة..

وتستحق (مطبعة الرواد) كل التقدير لهذه المبادرة المخلصة.. كما تستحق إذاعة (راديو الناس) التقدير والعرفان بعد ان قررت إعادة عرض هذه الرواية بطريقة مبتكرة فيما يسمى (الكتاب المسموع).. واستطاع الفنان المبدع الاستاذ (جاسم يوسف) ان يضع المستمعين في أجواء قريبة من مقاصد المؤلف للشخصيات والاحداث والبيئة.. لانه ابن البيئة وأحد الشهود على جانب مهم من أحداث الرواية..

لقد حظي المؤلف بقدر معقول من الاهتمام غداة سقوط النظام عام ٢٠٠٢.. فاحتفت به الصحافة بطرق مختلفة.. وأعدت وزارة الثقافة نشر روايته (قضية حمزة الخلف).. كما منحتة درع المتنبي.

سببى (شمران الياسرى - أبو كاطع)، متفرداً في حصاد القىمة الكبرى للكتابة من الريف عبر أفق فنى وأدبى لم يتح لمثله.. وسببى الريف العراقى قضية كبرى ومصنع هائل لإنتاج الثقافة ومنبت الفكر الخلاق فى الشعر والأدب والخطابة والسياسة.. ولقد كانت (صراحة) أبو كاطع مدرسة كبرى فى إنتاج العمود الصحفى الیومى، ثم فى إنتاج الرواية الرائعة.

إحسان شمران الیاسرى

شباط / ٢٠٠٧

الفصل الأول

انحسر الظل امام شمس تموز، المستبدة المتسلطة، فاضطر خلف
للاللتصاق بجدار كوسر الربعة.

كان موزع الانتباه بين راديو بغداد، يذيع بيانات الثورة، وبين ترقب عودة
"الجيمة" من قصر الشيوخ. ويجد فرصة، من حين لآخر، فيخاطب ولده
فرهود، على البعد:

"يا فرحتك يا فرهود.. اليوم يومك يا فرهود.. هاي الجمهوريه الردتها.."
ترأى له "البيرغ" الاحمر، تحت وهج الظهيرة، مثل شرارة انفصلت عن
شمس الرابع عشر من تموز.. فاجهد عينيه بالتحديق ..
ميز الرجال بصعوبة، يدورون بلا انتظام، في مشارف بيت صالح ابو
البينه، راعي غنم الشيوخ.

فسأعل نفسه مستغريا: ولم لا؟ لم تعد الدنيا على حالها.. قد يفعلها ابن
احميد ابو البينه ويدعو هذا الحشد الكبير على الغداء؟ اتراه يفعلها؟
انه بخيل مثل ابيه - هذا شيء مؤكد - ولكنه يتميز بالذكاء.
لوكنت مكانه لارغمتهم على تناول طعام الغداء. اذا لم تطاوعك يدك -
يا ابن ابو البينه - على ذبح خروفين او ثلاثة من شياهم فما اكثر غنم
الشيوخ "فشك من برا وتفك من برا والمايرمي..."

ولما تأكد من مغادرة "الجيمة" لبيت صالح، شرع يلوم نفسه:
إنني اهذي - دون شك - حين تطوعت بالتفكير نيابة عن صالح ابو
البينه وهونت عليه ذبح خروفين او ثلاثة - متجاهلا ان للجبناء والبخلاء
منطقهم ولهم معاييرهم الخاصة!
استاء خلف من مسيرة الرجال مبعثرين، بلا هوسة، يعوزهم الحماس

على نحو لا تخطئه العين: ويرفع فاضل - حفيد حسين - شيئاً ما فوق رأسه .. اقراراً بجبروت الشمس واستسلاماً للتعب. حاور فاضل في سره: تمشي هكذا يا حفيد حسين؟ بادى الاعياء في مقدمة "الجيمة" بعد مسيرة قصيرة كنت اعتزم قطعها معكم - على ضعفي ومرضي! هكذا تعودون بفتور .. في هذه الساعة وفي مثل هذا اليوم.. وكأنكم جيش "العصملي" ايام هزائمهم؟!

اين انت يا ايام الشباب؟ .. لأريهم قدرة الرجال على احتمال المصاعب والمتاعب؟.

اقتحمت ذاكرته حكاية جد حسين، سمعها مرارا من حسين: ولا يجوز الشك في صدق رواياته ابدا.. اردت ان امضي الشطر الاول من الليل قريبا من القرية.. ثم اتسلل لأسرق اهلها. اعتزمت ان اتخذ من كومة التبن مكمنا.. فاذا الاسد يريض جوار فتاة - وكأنه يستمتع بالنظر اليها. فغم انفي عرف البخور يتضوع من ثيابها.. فازداد عجبي .

حملت "مطركي" ولوحت به - نسيت إنني لص يتكتم - فزمجرت بصوت راعد: "خلها ابو اخميس خلها".

زأر الاسد وتوثب. خطوت نحوه، حرك ذيله - فتطايرت الاشواك الى اعلى والى كل الاتجاهات.. عشرات الانرع ودوى القضاء بهديره. لم اتوقف - فلطالما شهدت مثل هذه المبارزة. وكانت هي المرة الرابعة التي ينهزم فيها الاسد أمامي.

اقتربت من الفتاة.. فأختلط اريج "المحلب" بعرف البخور. وعلى ضوء

بفية الهلال - رأيت خضاب العرس يزين كفيها وقدميها. وضجت القرية من فرح ودهشة حين اعدت العروس..

قال قائلهم: انت أولى بها.. فلقد اختطفها الاسد من "صريفة" العرس وهي بين يدي العريس.. ومن الانصاف ان تكون انت العريس. قلت هي اختي (على شرع الله) منذ هذه اللحظة وسوف اتفقد اولادها كما اتفقد اولاد اخواتي في قادم الايام.

خطا نحو "الجيمة" مستعيناً بعكازته. فبادر حمود بن شنين بالهتاف: -
ها ها النشامة.. هذا خلف تلگاكم.. هوسوا.. .. هوسه هوسه، على احساب خلف.

ثم لوح له بالزناد، وصاح بانفعال:

- زنادك.. زنادك يخلف. لگيته بغصرهم!

تحلق عدد غير قليل حول حمود، بانتظار الهوسة، فادار عينيه بينهم، وحين استقرتا على فرحان بن سويلم، خاطبه مستنجداً: فرحان العاشق!.. هوسه على حساب خلف.

اجابه فرحان ضاحكاً:

- اليكسرهما ايخش اعليها.. انت الگلت هوسه.. واثت الصحت ها.. ها. دبرها وحدك!

فتل حمود خصلة من شعر رأسه، متمردة على "اليشماغ"، ثم كرر نداء الانتباه:

- ها ها .. هاها..

اصغى الجميع، والابتسامه على وجوههم، (لان احدا لا ينتظر من حمود

غير المزاح). رفع يده، التي تحمل زناد خلف، و ركل الارض بقدم واحدة وهوّس:

- ازنادك رد لك. كون اتريد اخرجهم بيه؟!

فاستجاب الاخرون لهوسته، متصنعين الحماس..

فجعل خلف يتمتم بصوت واهن:

- اخرجهم بيه .. اخرجهم بيه !

استداروا حوله مرارا حتى استبد بهم الاعياء...

رفع فاضل ذراعيه ايذانا بالاستراحة. حينذاك تسابقوا يبلغون خلفا، مع شيء من المبالغة، خبر هزيمة الشيخ واختفائه بين النساء.. فحرك خلف رأسه وقال بصوت حاقد:

- هاي تسوى عمره! شردته كافي... عليّ نذر لو رححت باجر للجره،

البسه شيلة نسوان واطلعه لمضيغه!!

فهتف فاضل بحياة خلف، وحث الفلاحين على التصفيق والتهتاف

فتصايحوا:

- يعيش إنشا الله..

انشا الله يعيش خلف..

وامتزجت هلاهل النساء بهتافات الرجال ...

* * *

أسرّ فرحان لفاضل، وقد اثقل الخجل لسانه:

- انا هم تورطت .. واخذت من قصر الشيوخ بطل شربت.. ثم اخرج

الزجاجة من طيات عبائه.. فشقق فاضل، مبالغة في الفرحة، وتناول

الزجاجة بلهفة واندھاش، واستكمالا لمظاهر السرور، بدل مجلسه: ثنى ركبتيه كما يفعل المصلي، واخذ يورجح كتفيه بطريقة بندولية..

حرك شفتيه، كأنما يتلو دعاء.. ثم رفع صوته مترنما: الهي وانت القادر القدير.. يا من فضلت الحنطة على الشعير.. لقد بعثت الي رزقي رائعا رائقا شيقا .. وانا في اعماق هورة البترا.. لانك تعلم

بأنني حرمت على نفسي الشراب، الا في المناسبات وها هي مناسبتني .. اعظم بها من مناسبة واعظم به من بطل جون هيك! الهي يا من..

امسك به فرحان من ذراعه وقال:

- اشبيك؟ تسودنت!!

وضع فاضل الزجاجة بين قدميه وصفق كفا بكف وقال بلهجة الاسف:

- ولك تنشدني اشبيك ؟ يا حيف واللّه يا ابن ابن صكر ! ينشدني

البطران كيفك اشلونه....؟

ولك هذا ويسكي..

ويسكي بنص البترا.. ولبيلة الثورة!

رد فرحان مهونا:

- ما اتكول هيچ - حتى اجمع لك كل البطاله..

اهل العلوة كلهم جابوا منهن.. بيهن امريعات.. وبيهن امكرنات واكو

ملفوفات بحلفا.. اشكال وارناك.

عض فاضل شفته السفلى وقال زجرا:

- دسمعوا ابو كلب التخين !! انوب اچماله كاعد اكبالي ويسولف!!!

ولك اركض اجمعهن .. الليله نعلگها !

حال مغادرة فرحان للربعة، دخل شاب غريب، ارتاب به فاضل. وحين رجع فرحان، ببعض الزجاجات، تعانق مع الشاب بحرارة، وهنا أحدهما الآخر بالثورة.

ثم همس لفاضل مطمئنا، بان الشاب مراسل الحزب بين القرية والمدينة..
ولديه تعليمات عاجلة..

قاطع فاضل بمرح:

- لا تكلي مراسل الحزب. عسى يجي الحزب كله... الليلة لازم اسكر.
ثم اتبع ذلك بطلب احضار حمود بن شنين ومطشر بن حمزه (وقد سمع
عنهما الكثير) لاحياء حفلة بالمناسبة..

ضحك فرحان وجاهر بالقول:

- التريده ايصير ابو عباس..

الليلة نعلجها لاخوة موزا..

على كؤلة ابو المثل:

كاولي وعرست بتّه !!

* * *

انتشى فاضل بكأس (ساده) شربه دفعة واحدة.. اتبعه بأخر على
جرعات. حرك رأسه واصابعه على ايقاع "الدنبك"، الذي عبث به حمود
ببراعة فائقة. ورق مزاجه واستخفه الطرب لصوت مطشر. تمنى لو نبت له
جناحان، فيحلق فوق بغداد، ويراهها كيف تعيش الليلة.

ردد الحاضرون اسم عمه، ملا نعمة، وتمنوا وجوده بينهم في مثل هذه
المناسبة، التي طالما بشر بها...

تهامس بعض الشباب.. فعرفوا اسباب نشوة (استاد) فاضل.
تسلل أحدهم الى بيته .. ثقب الزجاجاة المخبأة بمسمار، و قطر الويسكي
في فمه..

حاول آخر ان يفتح الزجاجاة فأستعصت عليه. كسر عنقها بالمتجل ..
وشرب منها جرعات متلاحقة ...

تفرق الكهول الى بيوتهم.. لم يبق مع فاضل الا الشباب.. فزال حجاب
الكلفة واستبد الطرب بالجميع.

ذهب شابان الى بيتيهما وعاد كل منهما يحمل زجاجته ليضعها بين
يدي (استاد) فاضل.

فناول الزجاجاة المكسورة لحمود بن شنين وقال له :

هذا مكسور الرغبة حصتكم انت والكاعدين بصفتك..

كل واحد ياخذ له مصه - هذا مقوي للكلب .

اعطى الزجاجاة الثانية لفرحان وضيغه"المراسل" وقال:

- هذا المزروف الكم اهل هلصفحه ..

جماله فوك "الخبرك"

صاح حمود بن شنين بعد ان شرب حصته :

- والعباس ابو فاضل مثل النمل گام يمشي بظهري وبسدري..

ولكم هذا "مكسور الرغبة" واسمه عليه !

اجابه فرحان، وهو عليم بما يشرب:

- ولك دك! هذا يا نمل يا فجل..

دك أبو طبل دك !

ثم عانق (المراسل) بحرارة، دون مناسبة.

* * *

قال خلف لولده حمزة:

- الباتري صار ضعيف..

اجابه حمزة برقة، وقد اخذ على نفسه عهدا بالتودد لابييه ومعاملته

بلطف، مذ اعلنت الجمهورية صباح اليوم:

- ايه بويه..مخالف.

انشالله يمشي طارش للولايه، بعد ما تخلص هالخرابييط.. واودي لك

على باتري..

نهره خلف بشدة:

احج عدل! لا تكول خرابييط. ولك هذا عرس..عرس. انته ما تميز بين

العرس والخرابييط.. يا امخريبط!

* * *

فرقع داود اصابعه للمرة العاشرة.. وأعاد تساؤلاته، وكأنها مرثية لبيت

مهلهل.

- ليش.. ليش ضواكم طافي؟!

الكهرباء ما طفت ولا ليله من يوم نصبتوها لليوم.

عمت عيني.. الليله القصر اظلم.

تلقت الى زوجته، طامعا في مشاركتها.

فاهملته (زينة) ولم تجب بشيء.

* * *

اعرب صالح ابو البينه، راعي غنم الشيوخ، عن مخاوفه، ساعة اجتمع اهل بيته على العشاء، ورسم صورة كئيبة للمستقبل:

- كلبى لاسيني من هالطكطاكة !

مادام وصلت ادين الفلاليح لغراض الغصر اخاف توصل للغنم..
ويحترج الاخضر بسبر اليابس؟!!

انصرف كل منهم الى نفسه، يتخيل مستقبله بعد ضياع الغنم، وجد مهيدي (الابن الاكبر) نفسه وقد غادر البيت وليس معه سوى زوجة مشاكسة، تفخر بجمالها، وطفلة تحبو. واستبد اليأس بجنيدي (الابن الاصغر)وسأل نفسه:

من اين ادفع المهر اذن؟ أصرّ ابوها على خمسين راس من الغنم.. فما الذي سيطلبه اذا ضاعت الغنم؟

وتساءلت هدية (بنت صالح): كان يطلب مهرا غاليا- وغنمه لاتعد ولا تحصى-فيتردد خطيبي عاجزا عن دفع المهر. فما الذي سيطلبه اذا صودرت الغنم واصبح معدما؟

وتعاود صالح حكة مجنونة، بين ساعة واخرى، فيهرش جلده بقسوة، ويرفع صوته بالشكوى..

فكان ذلك هو الشغل الشاغل لزوجته.

* * *

قال حمزة، وهو يسمع صوت الراديو، فجر الخامس عشر من تموز:
- عفية عليك ياهلشايب.. من امس الصبح لهاليوم مانمت؟!
فردت زوجته باشفاق:

- بطل حيلي. كطع الأجل فردنوب.
صار واهسة بالتتن. ويلهج باسم فرهود: يافرحتك. ياجمهوريتك.
بكرت (سكونة)، زوجة مطشر، لتتنقل فراش خلف الى الربعة،
قبل شروق الشمس.
وقفت بالقرب منه، معجبة بدأبه على متابعة مايزيعه الراديو.
حسبته يصغي بانتباه، حين يضع رأسه على هيكل الراديو، متكئا على
مرفقيه.

سألته، دون ان تلقي عليه تحية الصباح:

- بويه..بويه.. ليش ماتستعدل بكعدتك؟

ولما اهمل سؤالها اقتربت منه.

دققت النظر في وجهه.

صرخت برعب.. ثم حثت التراب على راسها.

* * *

لقد مات خلف.

* * *

تناهى الصراخ من بيت خلف الى كل القرى المحيطة..

هرع الفلاحون يستطلعون..

وصل اهل "العلوة" كلهم الى بيت خلف. ولما يزل فاضل يغط في نومه

،تحت تأثير الويسكي، الذي عب منه بافراط-ايقظته امه بصعوبة.. واعلمته

النبأ. استعاد وعيه وشرع يرتدي ملابسه على عجل. عرضت عليه عمته، ام

فرحان، تناول الفطور، فرد بمزاج سيء:

- منو اله خلك ياكل؟!!

حين وطأت قدماه عتبة بيت خلف احس ضيقا، لم يكن حزنا، فقد عرف
الحزن من قبل..

شق طريقه وسط الزحام.. وراح يتملأ وجهه خلف..
ود لو يبكي ويستريح. اشعل سيكارة، وراح يغالب انفعالاته بصعوبة:
مع انها الحقيقة الوحيدة المطلقة ولكنها غير مفهومة لي، ولا مبررة حتى
مع وجود الجنة..

قطع تأملاته حمود بن شنين، بإشارة من اصبعه، الى كفي خلف:
احدهما تمسك المنديل الابيض، هدية فاضل. والآخرى مطبقة على
الزناد.

* * *

سمع صالح ابو البينه صراخا، قبل طلوع الشمس، فلم يصعب عليه
تعيين مصدره، فالاصوات مميزة وواضحة في مثل هذا الوقت المبكر، حتى
لتبدو أقرب مما هي بكثير. عين الصراخ في بيت خلف. لم يتعاطف يوما
مع آل خلف.. لكنه وجد نفسه منساقا مع احساس شديد بالمشاركة، لاولئك
الذين نكبوا في هذا الوقت بالذات، وانه ليتفجع اليوم لو سمع ذنبا يعوي
متألما! اصدر امرا لولده جنيدي بالذهاب، ليستجلي الخبر. سرعان ماعدل
عن رأيه وقال:

- لا. لا جنيدي مايروح. امس وديته، جاب لي الخبر الاكشر(خبر
الجمهورية) اليوم الله يستر شيجيب لي من خبرامصخم املطم !
ثم التفت الى ولده الاكبر، مهيدي، وقال:

- روح انت.. شوف بيت خلف شعدهم.. ماعدهم؟
 رجع مهيدي مسرعا، ليعطن نبأ وفاة خلف.
 فقال صالح بذهول:
 - هذا شماله مات؟!
 سكت برهة، ثم عاود القول، وكأنه يعاتب خلفا على موته:
 - هسة سوأ موته؟! چا موش هاي الجمهورية چان ايريدها؟ من
 صارت جمهورية مات!!
 فطن الى هلوسته، فاستدرك قائلا:
 - الف استخفرلله ياربي.. ابن آدم صار يحچي وما يدري، نهذي من
 جور گلوبنا.. ياربي لاتحسبها علينا!!
 سحب نفسا عميقا من سكارته ثم قال:
 - احسن له مات.. خلوه يستراح!
 أما انت يا صالح ابن الغبرا سوف تبقى تحسد الاحياء بلا هموم
 وتحسد الاموات الذين تخلصوا من هموم الدنيا.. التفت ثانية لولده يسأله:
 - ايه.. وبعده؟
 - چا اشبعده؟ غير مات!
 - صدگ مات..
 - يگولون بساع بساع مات..
 - هنياله على هل الموته!

* * *

تلقت صالح يمنا ويسرة، ثم الى الورا، فأطمأن لوجود ولديه. ولما

اقتربت الخيل تخب وراء السيارات، امرهما بالجلوس، وتبعهما في جلسة خائفاً مترقباً. مد كفه من فوق منكبه وعيناه مسمرتان في الغبار الذي غشي الافق، وقال بنفس مبهور:

- ججارة.. مهيدي لف لي ججاره...

تحركت يد مهيدي تبحث عن كيس التبغ عبثاً، كان يتدلى في حزامه فلم يفتن اليه، لحظ جنيدي عملية البحث اللا مجدية، فاخفى ابتسامته، ومد اصبعه الى حزام اخيه ليستل كيس التبغ..

سمع صالح ابو البيئه لغط النساء، داخل الخيمة، فألتفت على عجل وقال زاجراً:

- اس.. ولا واحد يتنفس!

ثم عاد يسند ذقنه بقبضته، فتشعثت لحيته وصويت خصلاتها الى كل الاتجاهات.

تساءل جنيدي بأسف:

- ليش مارحنه بالعراضه ؟ الزينات دوم تفوتنا..

اقترح مهيدي ساخراً:

- عارض الجيمه مناه، واضرب لك مشطين ثلاث فشك. خيل لصالح ان ولده جاد في اقتراحه، فانكره بقوله:

- ولك المشطين والعشرة، ياهو اليسمعهن، ياهو اليگول أنعم الله.

يروحن فسوة خروف حدر البيته!

وتساءل بمرارة: ما إذا كان المرحوم سعدون بن مهلهل قد نال مثل هذا التشييع الضخم؟ ثم قرر ان الدنيا بدأت تدور "بالمگلوب!" والا فما معنى

تجمع هذا الحشد الكبير من الفلاحين، واطلاق الرصاص بلا حساب، وسبع سيارات خصوصي كل ذلك لتشجيع جنازة خلف؟! لاشيء اصلح من قوله هو "بلا بوش دنيا!"، لو انتهت الامور كما بدت.. وممر حادث نهب القصر بلا عقاب فمن يستطيع الوقوف بوجه هؤلاء؟ ومن ذا الذي يحول بينهم وبين تنفيذ رغباتهم المجنونة؟ لقد سقطت هيبة القصر وسلبت أثاثه، والغنم لا تكلفهم مثل هذا الجهد.. واذا استقامت لهم الامور -لاسمح الله- فأين هو الخط الواضح الصريح الذي يفصل بين غنمي وغنم الشيوخ؟

توقفت السيارات فجأة، بالقرب من بيته، لتعطي الخيالة والراجلين فرصة للحاق والتجمع.. ليبدو التشيع كما اراد له (المراسل)، تظاهرة سياسية، وعلى هذا الاساس نشط فرحان وعودة وحمود بن شنين لتجميع اكبر عدد ممكن من الفلاحين ليظهروا وحدتهم وقوتهم امام العناصر المعادية للثورة. نشف ريق صالح، باغتته (الحكّة) منهومة شرهة. نقل عينيه بين الغنم وبين الحشد الفلاحي الضخم وتمتم برعب:

- كل اثنين بنعجة! أيه يخايب يصالح- واحد ياخذ الجتاف وواحد الافخاذ! ايه.. مال الخسيس فطيس. شتگول.. شربن ماي هور بغياب الثريا؟ طاحن بمبزر مال انره؟.. حتى عيالك ما اشبعتم خبز.. جرودهم اتدول چنهم مجادية.. هيچ احسن لك يا ابن الغبرا!! بليله وضحويه، ما چنك زارع يابده! رفع صوته مستغيثا بمقام سيد سراب:

- يا ابو الفوانيس.. الك ذبيحة نذر لو طلعتنا من هلشده!

استدار صوب قرية الشيوخ واستنجد:

- يا ابو شراره الك ذبيحه نذر.. وانت يا مولاي يا سيد حسن

الكربلاني الك ذبيحة نذر لو خلصنا من هالجراد!

تذكر غزو الجراد لزراع الديمة، كان صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره.. رافق والده لمساعدته على نثر "الجره" .. حمل قبضة من تراب، لا يتذكر أي "السادة" قرأ عليها تعويذة ضد الجراد.. او لعلها من ارضية مقام احد الاولياء.. وضعها فوق كومة من تراب استخراجها ابوه من حفرة بلغت ذراعين طولاً ومثل ذلك عرضاً.. امره ان يمزج "الجره" فخلط التراب القليل بالتراب الكثير! ثم تعاونوا على نثر التراب، في كل ركن من اركان الديمة.. ورحلت ارتال الجراد بفضل "الجره": آخ.. ليتني امزج طينة السيد ابو شراره بهذا التراب الكثير، الذي حولته الغنم الى ما يشبه الدقيق.. أه ويحمل كل واحد منا، نساء ورجالا، قدر طاقته من هذا التراب الكثير.. ونثره في وجوه ارتال الجراد القذرة!

اجتازه "الجمع" دون ان يصدر عن احد ما يريب: هذا لا يعني شيئاً البتة.. ومن الغباء ان اتطامن الى إعراضهم المقتعل عن الغنم.. ومن يدري فربما ارجأوا "الفرهود" الى حين عودتهم... يرافقون الجنازة حتى الطريق العام، ثم يعودون كما عادوا بالامس.. ودعابة سمجة من ابن كبير او ابن شنين، اذا لم يكن المعلم هو السباق، تكفي لتذكيرهم بغنم الشيوخ.. ومن خرق صغير كالذي حدث في سدة البترا قبل اعوام، توسع المياه مجراها.. ثم تتدفق مدمرة لا تبقي ولا تذر. اراهن بعباتي و"عگالي" ان سيقول قائلهم:

- بثواب مرحوم خلف كل واحد نعجه.. يذبها ويقرا الفاتحة لخلف.

* * *

اقترح حمزة، وكان يخفي قلقه تحت ستار من الكأبة: ان لا تتوقف
الجنازة في قرية الشيوخ واعطى مبرراً لاقتراحه:
- الناس اهلها بعيدة وتصعب عليها الردة بالليل.
اجابه فاضل، وكان يجلس جنب السائق:
- انشوف رغبتهم.

وقلب الامر حمزة، هو ايضاً له رغبته، بل رغبات تتصارع: تتوقف
"العراضة" عند قرية الشيوخ وعلى الطريق العام، تهوَس وتطلق الرصاص،
ويراها الرائح والغادي، ويسمعها القاصي والداني على ضفتي الغراف
وذلك مدعاة للفخر والمباهاة.. والدنيا صيت و"اعلوم" قبل أي شيء آخر:
فأن تفرقت الان امنة وقوع المحذور. فاقتراب الجموع من قصر الشيوخ
ليس اخطر منه قرب البنزين من النار. وليس ببعيد يوم امس. وحينذاك
يعتبرني الشيوخ سببا لكل ما يجري. لقد تصرفت بحكمة يوم امس ويبدو
ان الجرة لا تسلم كل مرة.. فلم يرني احد من خدام القصر وبوسعي ان
احلف اغلظ الايمان بأنني ما شاركت بالهرج والمرج اذا ما جاء يوم
الحساب على يد الشيوخ.

اشار فاضل الى السائق ان يتجه في الطريق الفرعي المؤدي الى قصر
الشيوخ، واقترح عليه خفض السرعة لادنى حد ممكن، لتتنظم "العراضة"
وتبدو مهيبة مخيفة..

ازداد حماس المشيعين، حين انعطفت السيارات في طريق قرية الشيوخ
وتكاثر اطلاق الرصاص.
هوس فرحان بن سويلم:

-من عهد البايذ مليّنا!

كان الشيخ ضاري وكاتبه، ملا علي، يرقبان "العراضة" من سطح القصر بنظرات حاقدة، ويطلقان زفرات ممرورة. تبادلنا نظرات ذات مغزى حالما توجهت العراضة صوب القرية. فالتمعت فكرة ذكية في خاطر الكاتب، سرعان ما وجدت قبولها عند الشيخ.

تعجلا دخول القصر وحملا رشاشتي "برن" جديدتين، ليشاركنا أبناء العشيرة في مناسبتهم، وكان القصد الحقيقي كما أوضحه الكاتب:

- خلهم يسمعونهن.. وهسه يشتعل ابيهم.. خاف واحد عنده نيّه مثل امس ويريد إيلعبّ ذيله!

كلف الشيخ احد خدمه بملء "الشواجير" وتفرغ هو لاطلاق الرصاص - صليا- في اتجاه العراضة تت تت تت. تت تت تت تت تت تت تت.

فوجئ الفلاحون بهذا الصوت الراعد، فصرخ حمود:

- عويّنة ابو اشنين ايشتمن اتشتم!!

صممت البنادق احتراما لصوت "البرن" الجهوري المخيف! تت تت تت تت تت تت تت تت تت تت.

نظروا في وجوه بعضهم. قال فلاح بسيط:

- ايباه ولا ائرت بيهم عملة امس.. شوف اشلون شاركوا العشيرة بعراضتها.

همس فرحان لعوده:

- هذا تهديد..

- تخويف، أمبين..

- هاي نار جهنم..

- هذا إشلون سلاح كافر!

راح فرحان وعودة يشجعان الفلاحين على اطلاق الرصاص. بدت
البنادق خجولة من نفسها، الى جانب هذا القصف الراجع.. اوشكت ذخيرة
الفلاحين على النفاد.

قال حمزة، يغالب زهوه:

- هم زين، بعد عدهم اشوية اصول.. ضربوا للعرضه..

اجاب فاضل بعصية:

-انعل ابوهم لا ابو اصولهم.. هذا ارهاب. ما تعرفهم اشلون سرسريه!!
قدر فاضل ان تفرق المشيعين الان له ما يبیره فقرع (هورن) السيارة
مرارا ولوح بيده.. تخلق حوله عدد من الفلاحين.. ولم يعترض احد على
اقتراحه بالتفرق.

لقد بدد صوت "البرن" كثيرا من حماسهم..

* * *

اجاب السائق على سؤال فاضل:

- السيارة اللي بيها جنازة ما يسري عليها امر منع التجول.
وسارت الامور كما قدر السائق، لولا كثرة نقاط التفتيش والتدقيق في
الهويات..

* * *

لحظة اجتياز السيارة لمفرق الصويرة، بلغ التأثر بحمزة حدا أسال
دموعه.. تمنى لو كان المرور بفرهود سهلا..

وسأعل نفسه: كيف اعذر له عن عدم ابلاغه خبر الوفاة؟
يا فرحتك يا فرهود.. أحس بما يشبه الغيرة: لقد اولاه كل الاهتمام
في ادق اللحظات وفي اشد حالات الانفعال. وطفعت الذكريات الحلوة على
كل ما سواها. استشعر الندم لانه لم يوفر لابييه الراحة في ايامه الاخيرة:
كان عليّ ان اعامله برفق اكثر. اعتاد حمزة في الاشهر الاخيرة ان يسأل
"سكونة" او زوجته "اشلونه الشايب" دون ان يكلف نفسه دخول الربة
والاستفسار منه مباشرة: لقد كان نعم الاب ولا اعرف فلاحا عامل اولاده
بأفضل مما عاملنا -بأستثناء حسين، ليتني دخلت في مرضاته واعمض
عينييه راضيا عني. ليتني لم اطواع مخاوفي واتسبب في رحيل فرهود.
وكيف تستقبل امي نبأ وفاته؟؟

التفت اليه السائق، بعد ان رأى دموعه خلال المرأة وقال:

- كلنا للموت.. يا معود.. امسح دموعك.

التفت فاضل فرأى دموع حمزة لأول مرة، فقال مواسيا:

- صحيح الانسان يفقد ابوه مرة وحده بالحياة وهذا حادث ملازم يمر
عليه الانسان بدون مبالاة.. لكن اعتقد بان وفاة خلف غير شكل.. ترك اثر
طيب وانته لازم تفخر بهيج أب!

قال حمزة بصوت متهدج:

- واللّه يا ابو عباس أنه بجيت على فرهود لان ما شافه...

ثم روى له كيف امضى خلف يوم امس وليلته يصيح بتأثر: "يا فرحتك
يا فرهود.. كون اشوف فرحتك يا فرهود.. ولم ير فرهودا ولم ير فرحته.

استبدت بفاضل رغبة للبكاء.. تغلب عليها بصعوبة، وبعد معاناة كانت

السيارة تجتاز شوارع بغداد.

مد فاضل عنقه واخرج رأسه من نافذة السيارة، تمنى لو هتف للجنود..
لم يكن الوقت مناسباً للهتاف، فقد اقفرت شوارع بغداد تنفيذاً لامر منع
التجول.

كانت اجراءات التفتيش صارمة، ولكنها اعتبرت هينة سهلة بالقياس الى
ما تعرضوا له بعد عبورهم جسر الخر. لم تعد نقاط التفتيش تدقق الهويات
وتفتح صندوق السيارة حسب، بل كانوا يصرون على فتح غطاء التابوت
ومشاهدة وجه الميت.

تساءل فاضل عن اسباب هذا التشديد ولم يتعرضوا له طيلة الدرب بين
الكوت وبغداد.. فأجاب أمر نقطة التفتيش بأن الدخول الى بغداد ليس
كالخروج منها، وفي مثل هذه الساعات الحاسمة. نوري السعيد ما زال
طليقاً.. ولا احد يجهل مخاطر افلاته من قبضة الثورة.

وعند النقطة الثانية، حين صعد أمر نقطة التفتيش ليكشف عن وجه
الجنائز، قال فاضل دون ما قصد محدد، بل لمجرد الرغبة في محادثة
الضابط الشاب:

- يا استاذ هذا من اعدى اعداء نور السعيد والاقطاع هذا خلف ابو
حمزة.

خيّل لأمر النقطة ان اعلانه الجهل بهذا الاسم قد يعني عدم معرفته
لكثير من الامور، وربما يدخل في عداد النقص في وطنيته، فنزل على
عجل، دون ان يفتح غطاء التابوت وقال بتأثر:

- نتشرف نتشرف.. الله يجعل الجنة مثواه..

ثم قدم لهم السكاير وكرر اعتذاره:

- انتو مو اقل حرص من عدنا على الثورة.. واعتقد تسامحونا.. على كل حال تفضلوا.. اللّهُ وياكم نتشرف بالوطنيين..

وتكررت الجملة على لسان فاضل عند كل نقطة تفتيش فكانت نتائجها جيدة، ان لم تجلب لهم المزيد من الاعتذار عن تأخر الجنازة فانها لم تسبب لهم مضايقة على الاطلاق.

لمح فاضل على ضوء السيارة جمعا من الفلاحين قرب مزرعة اللطيفية، فأعلن بقلق:

- هاي مو نقطة تفتيش.. بس لا أكونون سلابه!

اشار احد الفلاحين بمصباحه، فيما صوب سبعة منهم فوهات البنادق نحو السيارة، سارع السائق يدس نفوده في جوريه. ونشف ريق فاضل من شدة الخوف. وقال حمزة دون مبالاة:

- يا معودين شكو عدنا وانخاف..؟ شايلين جنازه.. حتى لو همّه كفار ما ياذونا..

تقدم ثلاثة من الفلاحين وقال احدهم:

- اخوتنا نرجوكم تسامحونا.. عدنا واجب تفتيش من فضلكم اتساعدونا انريد انفتش صندوق السيارة والتابوت.

استيقظ شك مفاجئ داخل حمزة. وراح يرقبهم بحدري.

جرت العبارة على لسان فاضل بصوت اقوى ليعبر بها عن رباطة جأش افتقدها منذ قليل:

- يا اخوان هذا من اعدى اعداء الاقطاع ونوري السعيد هذا خلف ابو

صاح فلاح من بين الواقفين على جانب الطريق:

- شسمه؟ شسمه؟

- خلف.. ابو حمزه..

تقدم الفلاح، ثم تناول المصباح من يد صاحبه.. وصوبه داخل السيارة..

تفحص وجه حمزه، الملثم، وصاح بتأثر:

- حمزه !

عرف حمزه صاحب الصوت فرد كالمستغيث:

- فرهود ؟

عقدت الدهشة السنة الواقفين... ثم تقدم الفلاحون ليعربوا عن تأثرهم ومشاركتهم لفرهود بمصابه، المفاجئ.. تمنوا لو كانت الثورة مستقرة، اذن لأجلوا مسير الجنازة الى الغد وقاموا بعرضة مناسبة. ثم تدافعوا يقدمون لفرهود ما يحملون من نقود.. اكتفى فرهود ببعضها واجزل لهم الشكر، ثم لم ينس وهو يصعد السيارة ان يلقي وصية، لا لزوم لها:

- اخوتي اخوتي ديروا بالكم زين...

وصاح احدهم قبل ان تبتعد السيارة:

- او كفوا او كفوا. هاي فلوس وكعت منكم..

تحسس السائق جوربه، تاكد انها نقوده سقطت حين نزل يفتح صندوق

السيارة الخلفي.

قال حمزة يدافع عن نفسه، ولم توجه اليه التهمة بعد:

- ماكو وكت حتى انودي عليك. امس چان كلشي ما بيه والدنيا ما لامته

من الفرح.. ويصيح يا فرحتك يا فرهود. ما ادري هالشايب ولي من اولياء
الله.. استجاب لكل ما راده.. غال اريد الشيوخ كون امفلكشين مثل عسكر
العصملي من شرد ولو يوم واحد اشوقهم هيچ كبل ما اموت.. وشاف
مصيبتهم أمس..

تساءل فرهود عما حدث لهم بالامس، فروى له فاضل ما جرى في
القصر باقتضاب، لم يكتف فرهود شماتته بالشيوخ وفرحته بالثورة التي
اذلتهم.. وزايه الحزن على عجل فمسح دموعه وحدثهم عن مهمته على
الطريق العام مع بقية الفلاحين: قدر اهل الخبرة من الفلاحين، ان افضل
طريق يسلكه نوري السعيد هو الصحراء المؤدية الى المملكة السعودية
وهناك يلقي الترحاب والود ويبنى وكر التآمر على الثورة وانه لن يعدم
المساعدة من الاقطاعيين ولهم وسائلهم العديدة في مساعدته على الهرب
ولهذا قررنا استئجار باص القرية.. وكلنا امل في ان نحظى بشرف
اصطياده!

فكر حمزة : عليّ ان اعتذر لفرهود الان.. عما بدر مني، وكنت السبب
في ترحيله.. ولكن كيف اهتدي الى مفتاح مناسب؟.. ردد لازمة خلف
صبيحة الثورة:

يا فرحتك يا فرهود. ثم اجهش بالبكاء.

ابتدره فرهود قائلاً:

- البواحي ما الها معنى.. خلنا نسمع خلنا نسمع..

وكان الراديو يذيع مراسيم جمهورية بفصل الموظفين الكبار الموالين
للعهد الملكي..

واريف فرهود قائلًا:

- هنوله الماتوا! هنوله ماتوا من صدك لازم يبجون على ارواحهم. ابونا كخسى وطره بالدنيا ومات خوش موة. سولف على هالشجولات اللي ما حصلت غير السمعة الوصفة.

غالبه احساس بان فرهودا عناه بقوله هالشجولات اللي ما حصلت غير السمعة الوصفة. وانه واحد من هذه الشجولات نتيجة لمعاضدته الشيوخ وترحيله لاختيه. وما هو يقطع طريق الاعتذار.

اجاب حمزة على سؤال اخيه بصدد الفاتحة:

- جينا فرحان ومطشر للولاية.. خليناهم يتسوكون غراض للفاتحة. وللجماعة غاد بينون مضيف شعر. وهسة الفاتحة منصوية. واحنة باچر كبل الفدة عنهم.

الفصل الثالث

تساءل صالح ابو البينة، على نحو مايفعل المتردد، الذي لا يطمع بجواب
ينتشله من الحيرة:

- مصيبيه! مدري شاخذ لفاتحه خلف؟

فتطوع ولده مهيدي بالجواب:

- مثل الوادم. شوف اهل مويلحة اشكتر يطون...

فتصدى له جنيدي معارضاً:

- الفلاليح يطون فلوس- لكن احنا اهل غنم. لازم نوذي ذبيحه.

حدق الاب في وجه ابنه، واطال النظر، كانما يطلب اعتذارا عن هفوة. ثم
امسك طرف لحيته، فقل شعرها.. وتكلم محملا صوته تجربة عمر طويل: لو
اقتدت ذبيحة لكل فاتحة ولكل عرس لما ابقيت على واحدة من شياهي،
خلال فترة، قد لاتجاوز عمر خروف. اذ ان الناس لاعمل لهم غير الزواج
ثم الموت!!

ودعم رأيه ببدهية حسابية، لاتقبل الجدل: ان اصغر ذبيحة تساوي اربعة
دنانير.. وان اكثر الفلاحين سخاء واريحية لايجود باكثر من دينار، لمثل
هذه المناسبة، فبأي صفة تريدني ان ادفع مقابل اربعة فلاحين-يا حاتم طي
آخر زمان!!!

انبرى جنيدي يدافع عن رايه: بوسعي ان اكتفي بالقول ان (خلف)

كان من اخيار العشيرة وكان من شجعانها المعدودين.. لكنني اضيف
الى هذا سببا جديدا هو تبدل الامور على النحو الذي رايتموه.. فقد شيع
جثمان خلف من قبل الفلاحين، بمهابة اكثر مما شيع جثمان سعدون بن
مهلهل.. وتلك بدايات لاتعرف نهاياتها، ولاننا من اتباع الشيوخ، شننا ام

ايينا، ولأن مستقبل الشيوخ على كف عفريت، فعلينا ان نتملق اقرب متنفذ في هذا العهد الجديد -المعادي للشيوخ.

تسرع مهيدي في الرد على اخيه:-

- خلف چان من اجاويد العشييرة.. وچان ينحسب حسابة.. لكن بعد ما فشخ ابن مهلهل.. گالو عليه تسودن. ثانية وبعد....
رفع الاب ذراعه اليمنى وكور قبضته، ثم بسطها في وجه مهيدي كانما يكش ذبابة، وقال بعصيبة:

-بس. بس. ياهو العندة خلك يسمع هالتسربت!!

ولم يعرف الولدان، ماذا اضر الاب، هل يقتاد ذبيحة ام يعطي ديناراً كسائر الفلاحين.

تسلل جنيدي، بعد الظهر، الى المرعى، واتفق مع الراعي، الذي يكن له الود، على امر لايكشف، الا في الوقت المناسب..اختر"طلّي هرفي" من غنم الشيوخ، اشقر يسر الناظرين. يتمنى كل غنام لو يحسنّ نسل قطيعه.. اقتاده الى فاتحة خلف-ولم يجد صعوبة في العثور على مبرر لفعله، يريح به ضميره.

* * *

تطلع صالح ابو البينه الى كل الاتجاهات، وشمل مضاجع اهل بيته بنظرة فاحصة، فالفاهم نياما، يداعبهم نسيم الفجر البارد، بعد طول تقلب على الجنين وكفاح لا هواده فيه ضد الحرمس والبق، وها هي ساعة الهدنة التي تسبق طلوع الشمس، لينعم النائمون خلالها بالهدوء.
يقظ زوجته بركة رقيقة، وهمس لها:

- رابع أخذ طلي من غنم الشيوخ للفاتحة لو كعدو الاولاد لاتكولين
أخذ طلي.. بس گولي راح للفاتحة..

واقتابه " طلي هرفي اعصم" لاتخطئه العين، وعين الغنم خصوصا.
تجنب السير في الطريق العام. اشتط جانبا، ثم عبر جدول البترا ولبد في
ساقية عميقة، يلف سيكارة، بعد ان اوثق الطلي ببشماغه. وما ان طلعت
الشمس، حتى هبط بيت خلف ، فوجدهم بين نائم ومستيقظ، ومع ذلك
استقبله حمزة ببشاشة المستحم المفطر. وعانقه فرهود بود ظاهر، وقد تأثر
لمنظره الحزين، وهو يقتاد ذبيحته في مثل هذا الوقت المبكر.

بلغ العجب من حمزة حد الدهشة وساءل نفسه: عصر امس بيعث ذبيحه
ويثني اليوم باخرى؟! ان الدنيا بدأت تسير بالمقلوب! هذا هو التفسير
الوحيد.

ثم رفع صوتا مخاطبا ابو البينه:

- شنهى هالزحمة يا ابو مهيدي.. الاجانا كفانا..

لم يدقق ابو البينه في كل لفظ قاله حمزة حسبه امتنانا زائدا.. لان
الذبيحة تستحق مثل هذا الشكر فقال بتواضع:

- افا عليك يا ابو مطشر! هذا اگليل بحگم.. احنا موش چنا بيت واحد؟
نسيت ميانة المرحوم، چان يفوت وياخذ الذبيحة بغير رخصة لبيت مهلهل..
احنا ما بيناتنا، بس الحرمة الله.

شاركهم الفطور، دونما كلفة شرب خمسة استكانات شاي، وراح يدخن
من علبة السكاير التي وضعت بين يديه"بغير وجع گلب!" واتخذ مجلسا
وسطا، غير متعجل العودة، وذلك امر مالوف، فالمعزي من قرية اخرى لا

يغادر مجلس الفاتحة قبل الغداء.

وجد نفسه بحاجة لمراجعة موقفه، وفحص مسلكه، بعد الذي فعله هذا اليوم: لابس.. سوف اضع مكان الطلي "الهرفي" واحداً من طلياني "الكيضيات".

لم يلجأ الى هذا الاسلوب من قبل، فالتبادل المؤجل طريقة جديدة، استهلها اليوم. كان يبادل الصغيرة من "طليانه" بكبيرة من "طليان" الشيوخ والهزيلة بسمينة، واحيانا الذكر بانثى. وهو يصدر في ذلك عن قناعة وفلسفة مريحة للضمير: مادامت غنم الشيوخ كاملة العدد فلا يهم ان يأخذ السمين ويضع الهزيل مكانه.. فما سمت سمينة ولا عاشت صغيرة لولا حذبه ورعايته.

- تحركت شفتاه، يبسمل ويقرأ سورة الفاتحة، حين دخل احد المعزين وطلب تلاوتها. عاود التفكير قبل اتمام سورة الفاتحة: ما اقترفت اثما ولا ارتكبت خطيئة.. حتى لو لم اعوض الشيوخ عن هذا الطلي. لقد تصرفتم لمصلحتهم.. فالناس يهددون ويتوعدون بالاستيلاء على غنمهم.. واذا صح التهديد، على نحو معين، فالتقرب من آل خلف يدفع الضرر المحتمل، بعد ان اصبحوا موضع احترام الناس -يفوق احترام بيت مهلهل- وعلى العموم فقد فعلت ما فيه مصلحة الشيوخ.. وكأن الطلي اقتيد لمضيفهم.. ولا حاجة بي لوضع "عطب" صوف مكانه.

* * *

لما تأكد داود من بقاء عمه، صالح ابو البينة، في مجلس الفاتحة الى ما بعد الغداء، تسلل ضحى الى المرعى مقدرا انها نوبة مهيدي، وهما على

وفاق تام ابدأ.. وصدق حدسه، اذ كان مهيدي يرمى الغنم.

بادره داود بلهجة تقطر مرارة:

- يامهيدي هاي دنيا. وصدك لو گالوا: الدنيا ام اضريطه ! اتصور أنه

داود.. أنه أتسلكن لبيت خلف؟ وادور على الشئ اليرضيهم؟!

- ايه .. دنيا!

- طاح حظها من دنيا.. على ماغال خلف: "بلابوش دنيا!"، اريد لي

ذبيحة للفاتحة. طلي زين من غنم الشيوخ . كون امور الشيوخ تستعدل

اكلهم عليه.. وانتة تدري الشيخ ما اعز علي شي.. وكون امورهم إتلوص

وتظل تمشي ليورا، ابيض الخيط والعصفور!

تحايل مهيدي على الراعي، بعثه بمهمة وهمية الى البيت، فأقتاد داود

"طلي هرفي عوسي - ما يندبح لبو تيله" تركه في بيته الى ان حانت

الفرصة، فأسر بأذن حمزة:

- ذبيحة بالبيت، ود مطشر عليها..

وكان دخول مطشر الى بيت داود، وتسلمه الطلي من يد زينة، سببا

لتبادل النظرات بينهما، بعيون فاحصة. تراءى لها مطشر بأستدارة وجهه

وعينيه النجلاوين، كأنه حبيبها، الشيخ ضاري بن فالح، لولا سمرته

الداكنة. وقال مطشر في سره، مخاطبا الشيخ ضاري: "عوينة ابو اليلومك

لو حبيتها.. جنها المعيدية البلصوره.. اليگولون عشكها الانگريزي ونهبها!!"

* * *

انتقل فاضل من الحديث عن قانون الاصلاح الزراعي بالجمهورية العربية

المتحدة الى مشروع قانون "من اين لك هذا.." مؤكدا بلهجة قاطعة: ان

الثورة ستأخذ بمشروع القانون وتضعه قيد التنفيذ: لقد كان مطلباً أساسياً من مطالب الجماهير.. وانه يعني...

اخفى صالح وجهه وراء جاره، متحاشياً نظرات فاضل، مخافة ان يتذكر غنم الشيوخ، ويضيفها مثالا، الى امثله العديدة، على تكديس ثروات الاقطاعيين.. وربما اتباعهم.. وهو واحد من الاتباع واكون اول ضحية لهذا القانون "ويتعلمون الحجامه بروس اليتاما" ومن اين لك هذا يا "ديوس؟! يا صالح. من اين لك هذه الغنم؟ ورثتها عن المرحوم والدي. ومن اين لك هذه الدنانير؟ الدنانير؟! هراء. من ذا الذي يكشف امرها. وهي معبأة في قناني زجاجية -ترقد تحت الارض بأمان؟! ولكن يا سفيه يا ابن الغبرا.. الم تسمع بالآلة "الصاروخة" جلبوها الى مدينة الحي بعد قمع الانتفاضة.. وراحت تفتش عن السلاح المدفون تحت الارض.. ما ان تقترب الى مكان فيه قطعة سلاح مخبأة حتى تصرخ...

صرخت امرأة جاءت تعزي آل خلف، فتشاعم صالح ابو البيئه من الصرخة والصاروخة ومن اين لك هذا ومن مقدم ملا نعمة الذي استقبل بترحاب اشبه بالمظاهرة.

انتزع فاضل حزمة الجرائد من يد عمه، وهو مشغول بمعانقة الفلاحين. نشر الصحف بين يديه على عجل وتساءل:

هل تمكن كامل من نشر خبر الوفاة؟ كان فاضل قد عرج على المطبعة، في طريق عودته من النجف، وترك رسالة لاختيه، طلب فيها اخبار عمه ملا نعمة... ورجاه ان ينشر خبر الوفاة: رائع رائع.. لقد تمكن من نشره حتى في جريدة الزمان توفي خلف العيدان عن عمر يناهز الثمانين قضاه بالبر

والتقوى... " اما في الجريدة التي يعمل بمطبعتها كامل، فقد صيغ الخبر على النحو التالي:

"توفي الفلاح خلف العيدان عن عمر يناهز الثمانين عاما، امضاه في محاربة الاقطاع بمختلف الاسلحة".

ابتسم فاضل. تعجل قراءة الخبر ولكن الديوان لا يزال يضج بأسئلة لا نهاية لها، موجهة لملا نعمة .. واشلونك بعد؟ واشلون عافيتك؟ واشلون صحتك؟ واشلون احوالك" ويتحتم عليه ان يجيب كل سائل: "اللّٰه يحفظك.. اللّٰه يديم كيفك.. اللّٰه يعزك.. اللّٰه يوفقك.. اللّٰه ينصرك.."

استاء فاضل لعدم اعطائه الفرصة. اخذ يتشاغل بمطالعة الصحف، حتى تنتهي اسئلة الفلاحين. فجأة يلمح فاضل اسم خلف، على الصفحة الثالثة، لمحة مؤطرة بعناية، كتبها كامل "اكتحلت عيون خلف برؤية حصن الاقطاع مهدما" ابتسم فاضل وخاطب اخاه في سره: "هو هذا عنوان يا اسطه كامل!؟"

لم يعد يحتمل الانتظار. رفع كفه لوقف "الاشلونات" عند حدها. قرأ خبر الوفاة.. تطلع الفلاحون في وجوه بعضهم مدهوشين. قال صالح بصوت خفيض "ايه.. بالجرايد النوب!!"

عاجلهم فاضل بالمفاجأة الكبرى. قرأ لمحة كامل عن حياة خلف.. طلب بعضهم ان يتأني في قراءتها.. ورجاه اخرون ان يفسرها اول بأول !
حاور صالح نفسه: "ايه يخايب يصلح صارت عداوة الشيوخ نوماس؟! اليوم اهون باجر ضوگه! جرايد الحكومه تسولف على خلف (البطل!) چيف لنه فشخ ابن مهلهل.. واي واي.. گالها وصدگ: بلابوش دنيا!"

تناول رأس الخيط ملا نعمة، وانطلق بحديث، كأنه مكتوب امام عينيه، وراح يرسم صورة للإصلاح الزراعي المنتظر...

اغتمم صالح ابو البينه، فرصة انبهار الفلاحين بحديث ملا نعمة، فأنسل من الديوان خلسة، دون ان يطلب اعادة الفاتحة.. وكلما ابتعد عن بيت خلف اسرع الخطى وتلفت: بدأت الشباك تقترب من كل ناحية.. وغدا تلتف حول عنقي.. ومن يصغي الي وانا اندب: هذه غنمي وتلك غنم الشيوخ "كلهم عكلهم سود وامنين اعرفه" غنم الشيوخ لاتتميز عن بقية الغنم.. كما يتميزون هم عن الفلاحين!! كلها ترتدي الصوف الابيض ولكل واحدة اربعة ارجل! فأين هو الحد الفاصل بين الحلال والحرام - ومن قال لك ان هؤلاء يفرقون بين الحلال والحرام؟ ومن يكلف نفسه مهمة التدقيق من اجل طول لحيتك، يا صالح يا ابن الغبرا؟

في الحرائق الكبيرة لاتحمي العود الاخضر خضرته. قالوا لماذا تركض هاريا امام الكلاب؟ الم تقل، ذات يوم، بأنك تحمل "فرمان امان السلطان؟" فأجابهم الواوي - لله دره - " تمام عندي فرمان بس اليقراه منهو؟" ولا اكثر منه حكمة الا الجرذ.. كانوا يبحثون عن الابل فولى هاريا مذعورا. سخفوا رأيه وسخروا من هزيمته فقالها حكمة رائعة - لا تنساها يا اثول يا صالح، يا ابن الغبرا - "مناه لمن اثبت روجي جريذي يروح جلدي للدباغ!" سارع.. سارع.. وانقذ شيئا من هذه السفينة الجانحة.. الآن الآن وليس غدا.. فلقد بعث الف مختار ينادي بالثارات الحسين.. وسيجعلونك من خواص يزيد رغم انفك.

* * *

كل فرد من عائلة صالح، يعرف واجبه ويؤديه على احسن وجه، خبروه قاسيا لا يتسامح. ولا يغفر ادنى زلة. لم يسمح لابنته او لزوجة ابنه ان تذهب بالغنم الى المراعي البعيدة.. ولم يكتم رأيه بهذا الشأن، جاهر مرارا امام زوجته وولديه: "المره وذرة لحم، والگاع متروسه بزازين!" فكان واجب هدية بنت صالح ساعة القيلولة، ان تراقب الغنم المرححة بين البيت وبين البترا، تتفياً ظلال الشوك العالي. ومن حين لآخر تعطي مترب الجدول، وتمد البصر ناحية قرية مويلحة..

سقطت حجارة بالقرب منها، فتنبهت، ولحت رأس حبيبها، عليوي بن زاير محيسن، يلبد في صدر ساقية متفرعة من جدول البترا.. تلفتت ناحية البيت اولاً، ثم دقت النظر في الطريق المؤدي الى بيت خلف. سارت على المترب حتى واجهت صدر الساقية. خوَّض عليوي في الماء والوحد.. استظلا بخميلة شوك.. كان شرها، نهماً في قبلاته ولساته.. لا يريد الوقوف عند حد.. عاجلته بالقول:

- مادام اللّهُ مبتليك بأبو أبخل من ابوي، عندي راي.. استرخت يداه. كف عن لمس نهديها تملى وجهها مستفهما.. اشارت الى ملابسه الرثة وقالت:

- البس لك هدموم مثل الاولاد...

استاء لملاحظتها، وغمغم بعبارات غير مفهومة... لم تترك له فرصة تدبير الجواب بل اكملت تقول:

- اخذ لك نعجه من غنم الشيوخ، تنباع بثمان دنانير بالقليل...

لمعت عيناه سرورا، ثم قال مترددا:

- لكن وين اوديها.. واشلون...

قطعت عليه سبيل التساؤلات بقولها:

- الزمها هسه، وچتفها بنهر، وباجر اغبش بيها للولاية، بسيارة الهور...

لم يبق مجال للتردد، فالفكرة رائعة، وسبيل التنفيذ ممدد - طبع قبلة

عجلى فوق وجنتها، وردد دون سابق تدبير:

- رزج البرازين على المعثرات!

نهضت تراقب البيت والطريق ثانية، ثم دلت بأصبعها على نعجة شقراء

سمينة "فك المحبوس" كانت تجتر حصيلة مرعاها الصباحي وتستظل

بشجيرة شوك عالية. انقضض عليوي كالذئب، واقتادها بصعوبة، لا اشد

منها الا صعوبة حملها، وتوصيلها الى الجانب الآخر من جدول البترا..

اتخذ الساقية سبيلا، محني الظهر، يفتاد شقرا، وغاب عن ناظريها،

فتنفست بأرتياح وقالت في سرها: نفذت جزءا يسيرا من خطة البارحة...

وما على الله الا ان يؤجل عملية الاستيلاء على غنم الشيوخ.. حتى ننفذ

الخطة بأكملها..

* * *

توقف صالح عن المشي في منتصف الطريق وساعل نفسه: ما الذي حملني

على مغادرة مجلس الفاتحة..؟ وقد شرعوا لتوهم يتحدثون بما اريد معرفته

والوقوف على كثير من اسراره؟ ليس عبثا مأثوراتهم... لا بد انها كذلك -

تخفي رأسها في الرمال متوهمة ان الصياد لن يراها مادامت هي لاتراه!!

كل احاديثهم عن الشيوخ وما يملكون.. وكأن الثورة لم تنفجر الا ضد

الشيوخ! فما الذي اغيره بأخفاء رأسي؟! يتعين عليك يا ابن الغبرا ان تواجه

الواقع كما هو.. وبتصرف بحكمة، صحيح، لن أخرج من هذه المعمة سليماً
معافى ولكن الفرق كبير بين المقتول "المفشوخ" ولن يتيسر لي سبيل
الاختيار الا اذا عرفت خطتهم وما يبيتون..

استدار على عقبه.. سار بضع خطوات نحو بيت خلف. كف عن السير
فجأة، وسأل نفسه: الى اين يا اثلول؟ اتريد تطبيق المثل "الچلب ما ايحب
الا خانكاه!" أي جديد تسمع لو عدت؟ لن تسمع ما يسرك ابدا.. فأما من
اين لك هذا ان يجتره فاضل.. وعيناه تستديران وراء زجاجاته كفأرين
خبثين.. واما ملا نعمة يتحدث عن اصلاحه الزراعي.. موغرا الصدور
بالحد.. مطالباً بالثارات..

رجع الى اهله موسعا الخطي: لقد تطامنت الى وهم كاذب... اتظنهم
يقتنعون بما تقول.. هذه غنمي وتلك غنم الشيوخ؟ ام حسبت فرهودا يقف
مدافعا عنك.. يتذكر الذبيحة التي اقتدتها لفاتحة ابيه؟!

ابدو وكأنتني اقل ادراكا من الجرذ - ولا املك عشر معشار حسه. فقد
حكى المرحوم: ان تجار السفن يبحثون في عنابرها، قبل الشراء، فان
وجدوا بداخلها جرذانا، اقدموا على شراء السفينة.. وان الفوها خالية من
الجرذان لم يغامروا بدفع دنانيرهم.. ذلك ان الجرذ يهجر السفينة حالما
تصبح في وضع يشبه وضع الشيوخ اليوم.

وها اني اراها، رأي العين، جانحة ولا حاجة بي لذكاء الجرذ وفراسته؟
"والمایشوف بالمنخل عمى العماء".

* * *

كان بمقدوره ان يتبع الراعي الى هناك، وينفذ خطته: ولكن من الحكمة

والذكاء ان تجري العملية على مسمع ومرأى من اهل بيتي، فأصيب
عصفورين بحجر: التخلص من الراعي.. وافهامهم بأن عين صالح لا تغفل
صغيرة ولا كبيرة.

تعود الرعاة ان يلقوا نظرة على اغنامهم، وهي ممرحة تشكل مجموعات
وعوائل، ليسهل عليهم اكتشاف المفقودة ومعرفتها بالاسم والاصناف. اما
عملية التعداد بالارقام فيجرونها على فترات غير منتظمة.

وقف ابو البيه في الطرف الغربي، من المراح، وشمل الغنم بنظرة
عجلى.. فأسرع الراعي الى التعداد، ليكشف عن المفقود بنفسه. بيد أن ابو
البيه بادره بالسؤال:

- ولك وين الطلي الاعصم؟

ارتبك الراعي وقال:

- عمي هسه احسب..

فزجره صالح ابو البيه.

- ولك هيه لعبة جهال؟ هسه تحسب چا وين چنت نايم؟!

قال جنيدي في سره: ان المفقود اشقر وليس اعصم!

ولكن على أي حال - الضحية هو المسكين (رويضي). وحاور مهيدي

نفسه: انه عوسي وليس اعصم! لقد راح المسكين (رويضي) ضحية مؤامرة

نسجها داود - اللّهُ يبلى يومه!- وضحكت هدية في سرها وقالت: اصبح لا

يفرق بين الطلي الاعصم والنعجة الشقراء. انها بداية تبشر بخير!

اتقن صالح دوره: فشتم اهل بيته، لانهم ثلاثة رجال وثلاث نساء، ومع

ذلك يضطرونه لاستئجار غريب، يسبب مثل هذه المشاكل واختتم المشهد

المسرحي بأخراج محفظة نقوده، والمناداة على الراعي:

- تعال.. تعال، بعد لك شهرين ويخلص فصلك. الشهرين ما لازم. وهذا بكايا حسابك..

تسلم رويضي بقية حسابه، وانتحى جانبا، غير أسف على فراق ابو البينه، واثقا من انه سيحصل على اجر افضل: ولكن ما يؤلني تهمة الاهمال.. الله يسامحك يا جنيدي لقد كنت السبب في كل هذا.

فكر صالح بما اقدم عليه.. احس بشيء يشبه تأنيب الضمير! فاخرج محفظة نقوده ثانية، وانتزع منها نصف دينار، ليداوي به جرح ضميره، ونادى على الراعي بلهجة ودية:

- تعال يا ارويضي تعال. هاي اكراميتك.

ولم ينسى -على جاري العادة- ان يستوهبه عن كل فعل وقول اساء له، في ساعة شيطانية..

اشتدت على جنيدي وطأة الشعور بالذنب، أعمل فكره لايجاد مخرج ينقذ به الراعي. استعرض كل الممكنات، حتى الاعتراف بأخذه الطلي: ولكنه سينتقم من الاثنين.. وتتحول القضية من غفلة الى تواطؤ..

اختلى بالراعي ثم عرض عليه المساعدة، بقصد التكفير عن خطيئته: خذ نعجة من غنم الشيوخ في الصباح الباكر. او ظهر غد حين اكون في المرعى.. فرفض الصبي بشدة:

لا. لا. كلشي ولا البوك. اليبوك ايدطلب..

وانه اريد أمشي على طول!

* * *

جمع صالح اهل بيته وحكى لهم ما سمع وما رأى في مجلس الفاتحة، غير متحرج من وضع الزيادات والحواشي: فالاصلاح الزراعي كما يريده ملا نعمة ان يصبح ابن مهلهل، نفسه، مثل بقية الفلاحين.. ويخرج من هذه المقاطعة العظيمة ربي كما خلقتني. وقانون من اين لك هذا، كما يريده فاضل المعلم، الاستيلاء بالباطل على ممتلكات الناس وغنمهم.. وجرائد الحكومة لا هم لها الا الحديث عن خلف، مضية عليه نعوت البطولة والثورية، لانه تجراً، ذات يوم، وقشخ ابن مهلهل. وهذا يعني بكل وضوح وجلاء التحريض السافر على الشيوخ. ثم اوجز ما لم يقله بالعبارة التالية:

- والنتيجة هاي مصيبيه.. على كولة ابو المثل: السالم مكسور!

تركهم في حيرتهم صامتين، وراح يخطر بينهم وبين الغنم محاورا نفسه: بأي حق يستولون على غنم الشيوخ؟ لنفرض انهم اساءوا للفلاحين.. فما ذنبي انا؟ اين حقوقي في غنم الشيوخ.. اين سهر الليالي الباردة.. ولفح سموم تموز؟ هل أنتظر زبانية ملا نعمة حتى يأتوا وامد الكف مستجديا.. ابصص مثل كلب جائع بين يدي اولئك الذين لا يساوي واحدهم عطب صوف؟! لن اقف حتى يسلبوا ثيابي ويأتوا على "السبته" وبعدها اطلق ساقى للريح.. فأكون اضحوكة لكل كسول يستدير مع الظل حيث دار ليشبع نوما وكسلا! ان تعدلت الامور عدلت.. وان ساءت اكون قد سبقتهم.. وانفذت شيئاً من هذا البيت الذي تحيطه النيران. وقبل كل شيء وبعده.. اللّهُ يعرف مقاصدي -ولا اشك في رضاه عن عملي وانا واثق من مساعدته...

يوم كانت الدنيا بخير لم الطخ ذمتي بعطب صوف من غنم الشيوخ!

كف عن المشي. واجه مهيدي وقال، بلهجة حازمة:

- باجر اخذلك عشر روس من غنم الشيوخ للولاية..

فتساءل مهيدي: هل يأخذ نعاجا ام طليانا وهل يأخذ معهن خروفا..؟ رد

الاب، بنفس قصير: لا فرق.. المهم هو الحصول على اكبر مبلغ ممكن.

وتساءل مهيدي ثانية: عن البديل الذي يوضع محل العشرة رؤوس.. هل

يفضله من "اعواد" غنمهم.. او طليانهم..؟ اجابه صالح ابو البينه، بلهجة

توحي بالكثير من الغموض، الذي لا يرقى اليه فهم احد من اهل بيته:

- هاي قضيه محد يعرفها.. أنه مدبرها ومدسترها!

خطر لمهيدي ان يبحث عن ذريعة، فيقترح التأجيل الى ما بعد غد، بيد

ان مزاج الاب كان لا يحتمل المناقشة فطمأن نفسه: لا بأس قالوا في

امثالهم "لوفاتك يوم الحجة بسطعش".

ثم اوجز الاب خطة العمل:

- من غبشه اخذوا الغنم، وعارضوا سيارة الهور ورجبوهن بيها.

استشعرت هدية دنو الخطر، والوقوع بالمصيدة: فغدا يبكر صاحبها،

عليوي بن زاير محيسن، ويصعد نفس السيارة، ومعه واحدة من غنم

الشيوخ، لا تخطئها العين، وبنظرة واحدة يعرفها مهيدي: ويرتفع لسان

الفضيحة وعواقب مجهولة لا يعلمها الا الله فقالت في سرها: يحسن بي

ان اوطن نفسي على احتمال زجره واهانتته وشتائمته الان.. ذلك افضل الف

مرة من عواقب الفضيحة المحتملة.

رفعت صوتها بشجاعة غير معهودة وقالت:

- بويه ولو انتة ابو العرفه وابو الراي، لكن عندي حجاجه اكلوها. لا

تأخذون الغنم بالسيارة، تنفك عليكم العيون..

اصغى الاب مدهوشا ثم حاور نفسه: انها تفتح عهدا جديدا فتعطي رأيا في اخطر قضية.. انه رأي شديد عرضته في لحظة حاسمة -يوم ضاع منا الرأي. ولكن الالم من ذلك كيف تجرأت؟! اترانا على الطريق الى عهد تحكم فيه "النسوان"! من يدري فقد يجيء حين من الدهر نصيح فيه مثل اولئك الاجانب الذين تحدث عنهم الشيخ: تمشي النساء امام الرجال ولربما، حكمتنا ذات يوم امرأة، مثل الانكليز: تاج ملكهم على راس مره! لم يجد بدا، من الاعتراف صراحة، بصواب رأي هدية. حرك رأسه، علامة الموافقة، وقال:

- راي بيه سبع احظوظ - ولو كايلين اهل المثل: شيروهن واخلفوهن. لكن صدك تنفك علينا العيون، لو ودينا الغنم بالسيارة. عدل عن خطته الاولى، وامر ولده بأخذ الغنم عصرا: امض ليلتك في ضيافة الغنامة القريبين من المدينة، وبكر الى السوق.. تكون هناك مع مطلع الشمس. وحذار من كثرة المساومة. حاور صالح نفسه:

.. انه آخر يوم من ايام الفاتحة. ولن يجتمع الفلاحون كاجتماعهم بهذه المناسبة.. ودونما حرج يلوكون كل شيء.. وعلى ضوء ما اسمع وأرى.. اعرف موطىء قدمي.. انها مناسبة لن تتكرر.. فليس كل يوم يموت خلف!. بعد ان شرب شاي الفطور واشعل السيجارة الاخيرة، من علبة اخذها يوم امس من مجلس الفاتحة. خطر له ان يجلس في بيت داود، ومن هناك ينصت لما يدور في الديوان.. تذكر بعد المسافة بين ربعة داود ومضيف

الفاتحة.. وقد ر ان لفس بوسعه متابعة الحديث على نحو جيد، وما هو اهم، خشيته من ان يراه احد، فتدور تساؤلات ويجلب لنفسه شبهة لا موجب لها: ولكن ارتياد مجلس الفاتحة كل يوم وانتظار الغداء مجلبة للقليل والقال ايضا، فما هو الحل يا اثلل يا ابن الغبرا؟

سوف اقدم على خطوة ما جاءها الاولون ولن يأتيها المتأخرون، اخذ نبيحة ثانية.. فأن ساءت الامور وتدهورت "ياسته سوية الستين" وان تعدلت طبقت المثل المشهور "الياكل ابيره ايزك امخيّط". الان بدأت تفهم الامور بشكل جيد وتتصرف كما يتصرف العقلاء "ولو صار شغلك عند اجليب سمه حجي جلب" ؟

تبع الغنم الى مرعاها، فأختار"طلبا هرفيا" من غنم الشيوخ، اقتاده دون ان يكلم ولده مهيدي، الذي وقف يرعى الغنم بمساعدة زوجته. سار بضع خطوات، ثم حصر الطلي بين ساقيه وعدل قامته، والتفت الى ولده مقررا: لا تتقيد بمجيئي من الفاتحة - فربما تأخرت الى العصر، خذ عشرة الرؤوس في الوقت المعين، وامض في سبيلك المرسوم وفقا لخطة البارحة. لم ينتظر مهيدي ابتعاده، اثار الى زوجته، مقبلا اطراف اصابعه من فرط السرور، وعلقهن في الهواء: لقد نجحت الخطة نجاحا هائلا. وبادلته بمثلها اشارة.. مضيقة اليها غمزة لم يتبينها لبعده وقفتها عنه.

لما توارى صالح ابو البينه خلف الساقية، شرعا ينفذان.... قال الزوج:
- اخذي النعجة هسه، وچتفيها بالنهر، على دربي، حتى لو مشيت العصر، أخذها..
- ناخذ نعجتين..

- لا تصيرين طماعه "الماگذرها ايغص بيها".

- لا اتصير جيان .. هاي فرصه ما تحصل بعد..

- تنفك علينا العيون..

- تنفك للجبر والجهنم!

وتوجهت الى نعتين، من غنم الشيوخ، اوثقتها بقماط ابنها، التي

احضرته لهذا الغرض.

وكان جنيدي لحظتئذ، يعقد صفقة مع عبيد المنتاز، والد خطيبته. عرف

كيف يدخل صلب الموضوع : سأتيك، بين اونة واخرى، بنعجة او نعتين

من غنم الشيوخ، تأخذها على الحساب من مهر "نجمة" . ولئن كان والدي

يرفض اعطاء خمسين رأس غنم، فبوسعك ان تطرح ما اعطيك اياه، وكأنتك

تنازلت عن جزء من المهر.. وبهذه الطريقة تساعدني مساعدة لن انساها..

لم يجد صعوبة في التفاهم مع (عبيد)، الذي عركته الايام وخبر الدنيا،

سجينا وطلايقا. رحب بالفكرة وفلسف الصفقة، دون كبير عناء : ما دامت

غنم الشيوخ مهددة بالنهب، كما يقول ابوك، فمن الخير لكم ان لا يضيع

تعبكم.. ولا تنس اني اقبل العرض رغبة في قربك.. لتيسير زواجك من

ابنتي..

* * *

عندما اقترب صالح من بيت خلف، استبد به قلق مفاجيء وركبه خوف

شديد، من تنبه حمزة ويقظة افكاره الشيطانية : لن يتركها تمر دون

تساؤل.. وكأني به يقول : ابن احميد "ابو البيه" يوجد بذبيحتين لمناسبة

واحدة.. وهو الذي قدم ذبيحة واحدة لا غيرها لفاتحة سعدون بن مهلهل

"والي نعمته؟" وليس بالامر ببعيد فقد اعطى دينارا واحدا لمناسبة زواج مطشر - فما عدا مما بدا.. بين ليلة وضحاها يصبح "ابو البيه" حاتم زمانه؟!

لقد اصبحت كالجرذ يحفر التراب على رأسه، لم أعد أميز بين النافع والضار.. والويل لي ان انطلقت حاسة شم حمزة! سيقطني آثاره ويفضح اسراري.. لقد اسأت لقضيتي من حيث اردت لها النجاح، يتعين علي الرجوع حالا.

رفع رأسه، فوجد نفسه غير بعيد عن بيت خلف، وعدد كبير من الواقفين عند باب المضيف يراقبونه : ماذا سيقولون لو رجعت؟ "غال له وردت؟" قال له وحلت! "سحب الطلي بعنف وواصل سيره "طاح الفاس بالراس" .
استقبله حمزة ببشاشة وإسغراب، والقى على مسامعه عبارات الثناء تمازجها دهشة واضحة :

- هاي شنهي؟! اشدعوه يا ابو مهيدي.. الوصل منك كبل فوك الكفايه..
وفكر حمزة بأستغراب : لا استبعد ان تمطر الدنيا ذهبا ! بعد الذي رأيت ومهما يكن السر الخفي وراء كرم ابو البيه - فلا بد ان تغيرا كبيرا قد طرأ على الدنيا برمتها.. او لعل الرجل قد اصيب بلوثة في عقله! ثلاثة ايام الفاتحة.. وفي كل يوم يأتي بذبيحة؟! ثم تفحص الرجل بنظرات مرتابة، وهو يضع بين يديه علبة سكاير، كما فعل مع ملا نعمة وفاضل المعلم..

استاء صالح من وضع العلبة بين يديه وفكر: ستجلب انتباه الاخرين وتركز الانظار حولي.. والشيء بالشيء يذكر.. تتداعى الافكار ويتذكرون الغنم.. وينفلت الجنون من عقاله المؤقت.. ليته لم يميزني عن الاخرين بهذه

شرع ملا نعمة يروي احداث الرابع عشر من تموز .. مع اضافات متعمدة، ليدخل الرعب الى قلب كاتب الشيوخ و السيد الكريلائي قائلًا في سره: أي لذة للمباهاة، واي طعم من المفاخرة اذا لم تكن على مسمع ومرأى من العدو؟! وبهذه اليد اسهمت بسحل الوصي.. ويوم امس اسعدني الحظ، قبل التوجه الى هنا بدقائق، فشاركت بسحل جثة نوري السعيد.. وما يدريني بالذي يخبئه القدر لهذه اليد..اي طاغية آخر، يتحتم عليها سحله!

وصل عبيد المنتان، سرگال قرية مويلحة و"قيم " مقام سيد سراب، ومعه عدد من اهل مويلحة، فلم يحظ بالاهتمام الذي كان يلقاه أينما حل وارتحل. وجلس في مكان "طرف" بجوار داود مأمور الشيوخ.كانا يعقبان على احاديث ملا نعمة، لكزا بالمرافق، وطرفا خفيفا بالجفون، ولم يطق عبيد صبرا حين جاء عودة الكبر ولقي ترحابا حارا من ملا نعمة ومن فاضل المعلم وفرهود الخلف.فهمس عبيد بأذن داود متهكما:

- هذا الولد يمكن عودة بن مهلهل !! موش ذاك صويحبنا الاولي عودة

بن كبر!!

اجابه داود همسا:

- تالي الحساب يصير عد ابو خضره!

وضع حمود بن شنين دلة القهوة بين اخواتها، ورمى ملا نعمة بسؤال

مفاجيء:

- ابو سعد ...اشوكت ترجع للبترا؟

- انشوف...

لم يرق جوابه لعودة الكبر، فقال متعمدا استفزاز اعوان الشيوخ،
وكتبتهم:

- لا ابو سعد.. هاي غيرك يگولها.. حسبالنا تجي بيوم الثورة.. يوم
السقطوا الاقطاعيين!

أسهم فرهود على عجل وهو يمسك (السماط) استعدادا لتصفيف طعام
الغداء، وقال:

- ابو سعد الغضيه غضية واجب وطني.. وجودك اناهة كلش ضروري
هليام...

اجابه فاضل بدلا من عمه:

- يابه.. يا فرهود.. هسه الواجب الوطني العظيم تستعجل بالغدا كتلنا
الجوع.. بعدين سولف على الوطنيات!

ابتسم كاتب الشيوخ، نكاية بفرهود، الذي تراءى له متعجرفا.. وكأنه
واحد من ابطال الثورة.. ثم رمق (عبيد المنتاز) بنظرة.. فشاركه الاخير
ابتسامته القصيرة..

* * *

طلب السيد حسن الكريلائي، بعد الغداء مباشرة، احضار شيء يرتقيه
كالنبر، ليقم مجلس عزاء بالمناسبة، فجاء بـ "جاون" قلب اسفله عاليا،
ووضعت فوقه وسادة..

استل موعظته من احداث الساعة.. نصح الناس بضرورة الهدوء
والسكينة. وتناول بالتفسير الاية الكريمة "... اطيعوا الله ورسوله واولي

الامر منكم... على انها دعوة للعشيرة بعدم مخالفة رئيسها - ابن مهلهل - الذي هو بمثابة الرأس للجسم.. وتساءل عن حال الدنيا اذا افتقدت سيطرة اهل الحل والربط.. وما الذي يحل بالناس اذا اداروا ظهورهم لاهل التجربة والعقل؟ ثم افاض بالحديث عن الحسد ومساوئه: ان تحسد من رزقه الله فكأنما تعترض مشيئة الله.. وتعصي ارادته.. وبالتالي فهو الكفر بعينه.. استغل السيد الكريلائي حصانته فوق المنبر، فتكلم بما يكفي لاغاضة ملا نعمة..

اما صالح ابو البيه، فقد صادفت المواعظ من قلبه موقعا حسنا، وبكى في غير موضع للبكاء، حتى اثار انتباه الديوان وسخرية بعضهم. لحظة ترجل السيد عن "جاونه" عاجله ملا نعمة، متمسكا بأضعف الحلقات من موعظته، ليجعل منها محورا للنقاش.. ثم التفت الملا الى الحاضرين "مصوتا".

- سامع الصوت عليكم.. ياهو اللي اختار فيصل ملك.. ونوري سعيد ريس حكومه.. وابن مهلهل شيخ وملاچ للارض؟ امسك الفلاحون اثوابهم، فيما يلي الرقبة، ونفضوها ، مجمعين على انهم لم يختاروا احدا من هؤلاء.. عاد الملا ثانية "يصوت" :

- سامع الصوت عليكم.. اعمال الشيوخ اللي شفتوها بعيونكم.. يرضى بيها الله؟

نفضوا ثيابهم، مرة اخرى ورددوا:

- لا والله..

- مجرمين..

- ماعدهم ذرة من الاسلام

- ما خلوا منكر ما فعلوه..

- كل الموزينات سووهن.

فأخذ صالح ابو البينة بالانكماش رويدا رويدا، وكأن كلمات الملا ضربات مطرقة فوق رأسه، ليغوص في الارض، او يتداخل بعضه ببعض. وفي كل لحظة يتوقع الزلزال، كأن الملا يقول، مثلا:

- ليش انروح بعيد؟ هاي گدامكم الغنم امنين جابوها!؟

قدر حمزة ان هذا الحوار، من النوع الذي لا ينسى.. وقد يجيء اليوم الذي يتعرض فيه كل من سمعه واسهم فيه للحساب والعقاب فساءل نفسه : ولكن كيف السبيل الى وقفه وهل لي ان اعترض؟! ولا احد يحزر مجرى الاحداث غداة غد..

نهض من مكانه. وقف قبالة السيد الكربلائي. طلب منه ان يطوي طرف سجادة، ايدانا بأنتهاء مجلس الفاتحة، وتلك مهمة لا يصلح لها الا علوي او وجيه محترم.

قام كاتب الشيوخ - متوجها الى فرهود الخلف.. ناوله عشرة دنانير وقال:

- الشيخ. يعتذر عن الجيه.. وهذني عشر دنانير وداهن للفاتحه.

تطاوس فرهود، فلم يحرك يده، فيما بقي ذراع كاتب الشيوخ معلقا بالهواء. وقال فرهود بلهجة تهكمية:

- نشكر الشيخ - هوه من اهل الجود - لكن احنا ما محتازين فلوسه

يوديهن بيد الطروش!

اقسم الكاتب بشرفه، استشهد بالسيد الكربلائي على ان الشيخ مريض.. ولولا المرض لم يتردد في حضور مجلس الفاتحة. فسارع السيد يؤمن على اقوال كاتب الشيوخ مضيئا اليها بعض التوابل والمقبلات: - أشهد الله، كان الشيخ -الله يحفظه- بوده يبقى بالفاتحة الى ان تنكف، بلي مولانا... ولكن المرض اعاذكم الله.

فجأة امتدت يد فرهود الى مبلغ، حصر الدنانير بين السبابة والابهام، وتقدم الى السيد الكربلائي قائلاً:

- مولانا هذني القلوس الك.. احنا ما محتازينهن.

نظر الفلاحون في وجوه بعضهم البعض وقد ارتسمت عليها امارات الدهشة.. وقال ملا نعمة في سره : لقد رفع الغرور رأسه ! ولم يحظ تصرف فرهود برضى احد الجالسين، على اختلاف وجهات نظرهم: اولهم حمزة كان يود اخذ المبلغ على مذهب القائل "شعره من جلد خنزير". وعبيد المنتاز اعتبرها اهانة صريحة لابن مهلهل.. والعملية في نظر حمود بن شنين، ضرب من البطر الذي يزلزل السموات السبع والارضين الست (- هكذا كان يقول ثم يوضح: بأن احدى "الارضين " لال السعدون وبيت المهلهل ولذلك يحلف برب السموات والارضين الست! اما صالح ابو البيه فقد اعتبر تصرف فرهود نذير شؤم بتدهور العلاقة بين الشيوخ والفلاحين.

طوى السيد حسن الكربلائي طرف السجادة وهو يدعو:

- اللهم اجعلها خاتمة السوء.. نسأله تعالى ان لا يريكم مكروها..

ولبس حذاءه على عجل.. ثم اوسع الخطى، مؤثرا الابتعاد عن هذا الجو

المكهرب.

قال ملا نعمة افرهود، حالما ابتعد الكربلائي وكاتب الشيوخ:

- جيت اتكلها عميتها.. رفضت المبلغ رضينا. هاي الرده التاليه

شيسمونها بالخير؟!!

فقال فاضل بسخريته المعهوده :

- يدهن زردوم السيد، حتى يدافع زين عن بيت مهلهل.. ايسويهم انبياء،

طاعتهم واجبه!

قال فراهود للملا :

- رفيق... ترضى ناخذ رشوه من الاقطاعي؟!!

اجاب الملا بنفس قصير :

- اقطع النهيره!

استرعت انتباه فاضل كلمة " رفيق" فلم يتركها تمر دون تعليق. سحب

عمه من ذراعه وهمس بأذنه:

- اهلا بالرغيف ! اشلون صحتك رفيقي!!!

ولما اختلى صالح بنفسه، راجع موقفه ثانية، وتفحص مواطيء قدميه،

فرضي عن نفسه واستحسن تصرفاته: حسناً فعلت بتقديم الذبيحة الثانية

- لآل خلف، كما يبدو، لهم المستقبل كله! حتى الشيخ نفسه يتملقهم...

يبعث دنانيره مع الاعتذار والمثل يقول"صاحب صحيب مرتك على اشچم

وكت!"

ثم عرض الى ما دار بين السيد الكربلائي وبين ملا نعمة فوجه الملامة

للسيد، لانه لم يحتفظ بالنصر الذي حققه على المنبر: اين ذهبت براعتك في

الحديث.. ما الذي حل بلسانك وقد كان "يكثر العذب" كسب الملا جميع الحاضرين ووقفوا بجانبه صراحة-وذلك بفضل حجته القوية.. لقد تكلم وكأنه "حاكم شرع" إنه اقبال دنيا!! مافي ذلك شك.. وصدق من قال "لو جاد حظك باع لك واشترالك، وزين المحتجى بالمجالس حجي لك ولو ردى حظك ياويل حالك" لقد اقبلت الدنيا على الملا وجماعته.. اما بالنسبة للشيوخ وجماعتهم فانه ادبار دنيا (وطيحان حظ!) هذا امر لاشك فيه، والا كيف افسر سكوت السيد الكريلائي وتلجلجه؟

ثم رفع صوته متشائما:

- مچفيه.. برد حيلها!! گامت تخلص بجلالها!

الفصل الثالث

لا متاعب ولا مصاعب..؟ بداية موفقة.
ولم يترسم خطاه فضولي ثرثار؟ انه فآل حسن. وما على الله الا ان
يديم الحال هكذا...
ثم التفت ابو البيه وسأل ولده ثانية:
- وبعد..؟
- اسكت وخلها..
- شنهي ما شنهي؟
- هيونطه.
- هيونطه؟
- ما ينعرف ساسها من راسها. الوادم اتشتم بالشيوخ على طول
حسها..
- معلوم!! لو غاب الكط العب يا فار.
طوى السبعين ديناراً، على هيئة اسطوانة، استعداداً لخزنها في "بطل"
جديد، يطمره مع اخوانه تحت الارض، ساعة يخلو له المكان - ويأمن عين
الرقيب من اهل بيته، وساءل صالح نفسه: ولكنه لم ينفق شيئاً من ثمن
الغنم..؟ اعفة هي؟ ام ان الخوف حال بينه وبين دخول السوق..؟ وهذا
شيء حسن كذلك!
فقل خصلة من لحيته. وضعها بين اسنانه. تذوق طعمها بلسانه.. ثم
تركها تسقط، لتتخذ المكان المناسب وسط خميلة الشعر اللتف، المتعدد
الالوان.. وقال لولده:
- باجر هم بيع عشر روس من غنم الشيوخ!

أسر مهيدي لزوجته، وهو يضع العشرين ديناراً في كفها:

- خمسطعش ثمن النعجتين.. وخمسة كطفتن من العشر روس..

حاول ان يستجلي اثار الفرحة عل وجهها الجميل، بيد ان الظلام حال بينه وبين الرؤية.

قدران لا شيء يعبر عن الفرحة المشتركة غير دغدغتها في اكثر المواضع حساسية من جسمها..

كتمت ضحكتها بصعوبة. وهمست له:

- اسمع.. اسمع.. وين اضم الفلوس؟

اقترح بعد فترة صمت، للتفكير، ان تلف الدنانير بقطعة قماش، وتجعلها مثلثة الشكل، تماماً مثل "الحرز" الذي كتبه سيد حسن الكربلائي لطفلتها. وخيرها بين تعليقه مع القلادة، او جعله في طرف الفوطة مع "الكرت"..

اعترفت له بصواب الرأي، وحسن التدبير، ثم سألته بفرح طفولي:
ياچر هم تاخذ غنم للولاية؟

- ايه

- ربي جئر الحروز!!

تملكته نزوة، دفعته للمعابثة دون تحفظ، وهم بالقول: ان هذا النوع من التعاويذ افضل الف مرة من تعاويذ السيد الكربلائي التي لا تغني ولا تسمن. استدرك مستعيذا بالله من غواية ابليس.. واكتفى بضحكة مكتومة.. ثم شدها اليه بقوة.

* * *

ضحكت (هديه) من هدية حبيبها، وقالت بسخرية لا تجرح:

- حرامي وببده فانوس!

ثم تساءلت بمرارة:

- ابيت صالح احط ريحه؟! شجاوبهم لو نشدونني منين لج هاي الريحه؟
وكانت، تغلب الزجاجة بحذر، مخافة ان يعلق باصابعها شيء من العطر..
فتخضع لاستجواب صارم، يتعذر عليها الخلاص من نتائجه..

اعترف عليوي صراحة ببلادة حسه، وعدم تقديره للامور.. ووعداها بهدية
اخرى من النوع الذي لايفضح نفسه بنفسه، حين يبيع النعجة الثانية.
نهضت هدية تراقب الطريق، وتستوثق من خلود اهلهما للراحة، ساعة
القيولة، ثم جلست بجانبه مطمئنة، تحت خميلة الشوك..

امتدت يد عليوي الى ابعد مدى. تبين لها بوضوح انه لا يكتفي باقل من
التصاق جسديهما عاريين - وكأن بيع النعجة الاولى واعترامه اخذ الثانية،
قد رفع الكلفة وهدم سور التحفظ.. غالبت هياجها بصعوبة، استنجدت بكل
الصور المرعبة لنتائج استسلامها للعواطف. قفزت مذعورة من بين يديه،
وزجرته بعنف:

- عريسّ؟!

ثم رمقته بنظرة غاضبة، حملتها كل ما تملك من قوة الارادة والتصميم
على صيانة الامانة، والخوف من عواقب العبث بالمقدرات..

تحاشى نظراتها. حاول ان يبتسم ويتمتم بعبارة تزيل آثار الغضب
المرتسم على وجهها، ونبرة الانفعال التي مازجت صوتها وهي تقول،
مشيرة بالاصبع الى نعجة سميئة:

- اخذ نعجتك وروح!

اقترح عبيد المنتاز على (جنيدى) خطيب ابنته، ان يضاعف العدد، ويأتيه بأربع نعاج بدلا من اثنين، في كل مرة، موضحا اهمية الاستفادة من الوقت: فاليوم الذي يذهب لن يعود ابدا.. وان الفلاحين سينهبون غنم الشيوخ حتما.. فقد لاحت نذر الشر. ونعق غراب الشؤم في مقاطعة البترا- حين رجع ملا نعمه وعائلته من بغداد.. وشهدت بعيني هرج الفلاحين ومرجهم وفرحتهم الغامرة بعودة رأسهم المدير لكل فتنة.. وليس بعيدا ذلك اليوم الذي يصدر فيه اشارته للسلب والنهب .. بس أيدك الهم يرگضون! بالامس هرعوا من اطراف المقاطعة الى قرية "العلوه" يستقبلون ملا نعمة.. وشرعوا على الفور بعد ساعات على وصوله يعملون بهمة لا تبارى... لتشييد الحوش والديوانية وحجرتي العائلة..

ادرك صالح ابو البينه ان نجم الملا في صعود.. وسيكون هو الأمر النهائي في مقاطعة البترا وما جاورها.. وايقن ان التقرب اليه أت بالفوائد لا محالة: ولا ضرر ابدا -حتى مع تبدل الاحوال- من اهدائه "ذبيحة" بمناسبة رجوعه من بغداد وسكناه الدار الجديدة.

وقع اختيار ابوالبينه على "طللي هرفي" من غنم الشيوخ كانت اليته، اذا مشى بتؤدة، تتحرك مثل بندول ساعة الحائط المعلقة في صالون قصر الشيوخ. تذكرها صالح وتساءل: هل انتزعها الفلاحون يوم اقتحموا غرف القصر؟

سحب الطلي بصعوبة من بين الغنم، ولما اقترب من قرية "العلوه" وجد

نفسه يبتسم ويتساءل: اتراه يعاملني كما عامل الشبلي بك فلاحه؟
كانت سمكة ضخمة لم تقع على مثلها عين الفلاح ابدًا. ساعدته المقادير
على صيدها في نهر "مريزجة". استكبر ان تأكلها عائلته وجيرانه.. اتخذ
قرارًا بحمل السمكة على ظهر حمار والتوجه بها الى مضيف الشبلي بك
السعدون مؤملاً "الكرامية" من البك مقرونة بالثناء والمديح.. اعجب الشبلي
بالسمكة.. وبدلاً من ان يوجه كلمة شكر للفلاح.. قهقهه عالياً وقال: "الفضل
لمريزجة يولدي!!" فهل يقول لي ملا نعمه وهو يتسلم هذا الطلي السمين:
"الفضل للجمهورية!!" ولا يتكرم عليّ بعبارة ثناء؟

من يدري.. قد يفعلها؟! السنا نعيش بين اليقظة والمنام -في هذه الايام!
قابله ملا نعمه بود واحترام، واجزل لع عبارات الشكر، خلافا لتوقعاته.
فحاور نفسه متفائلاً: هذا ما يجعل معنى لتضحيات الناس.. انه شيء
حسن..

لم يدم تفاؤله طويلاً.. فقد عرف عن أي شيء يتحدث الفلاحون:: يا
للتعاسة.. صدق من قال: لو قصد الشقي حفلة عرس لضل الطريق وساقته
قدمه الى مجلس عزاء "مشلوع الكلب ما ايرحك الله.."
انه حديث ذو شجون.. واستمرارهم فيه لا يخلو من المخاطر.. ضج
الديوان ثانية، شماتة بالمتهمين، حين ردد حمود بن شنين عبارة، تلفظها
على نحو قريب من لهجة الشهود..

حرك عوده الكبير رأسه.. وكأنه يصغي لوقائع المحكمة وقال:

- يهدر مثل السبع.

وعاد حمود يكرر عبارة الشاهد:

- سي سي سيدي.. ما ادري!

لا يا منقول والدين.. هسه صار ما يدري.. كبل جان الفهّام الفهيم!
التف عوده الكبر الى ملا نعمه، يصل ما انقطع من حديث سابق:
- تهمة هذا شنهي؟

اشترك بضرب المظاهرة.. جا اشعجب افعال الشيوخ ما تنحسب جرايم
سياسية؟
اجابه ملا نعمه:

- كل حسبه تگرد اترد اسبابها للسياسة لكن لوردنا ناخذ برايك لازم
الحكومة اتسوي مية محكمة سياسية.. وتقدم كل الشيوخ والملايخ
للمحاكمات: لانهم اشتركوا كلهم بظلم الفلاليخ...
نهض عوده الكبر، ورفع ثوبه، فبدت على ظهره اثار مطبوعة وقال بحنق:
- هاي. اتشوفها يو لا؟

هاي مجانان خيزران الشيخ صار الها اسنين وبعدها ما راحت..
ونهض حمود بن شنين وكشف عن ظهره.. ثم تبعه محمد.. وآخرون..
صاح ملا نعمه، وهو يضحك:

- شنهي القضية؟! عندي حمام؟ كلکم نزعتموا هدومکم!
عض فرحان بن سويلم شفته السفلى، وزمجر قائلاً:
- اوف.. اوف.. كون يوكف ضاري بمحكمة الشعب واسمعه يبيلع
ويتمتم.. يع.. يعني اشتقريب يعني!
فاطلق عمه، كزار الصگر، زفرة من منخرية وقال:
- امه! وأخذ بثار الدبسا الكتلوها..

وقال فلاح آخر:

- وأنه أخذ بثار البكعا!

وصرخ عوده الكبر ثانية:

- جا هيه السياسة رطونه؟!

هاي الجرايم سياسة ونص!

جف لسان صالح ابو البينه، ونشف ريقه: هذا ما لم يكن بالحسبان. لقد قتلت بقرة بأمر الشيخ وقتل المرحوم سلمان خمس بقرات.. اما داود فلا تعد ولا تحصي ضحاياه..

وكلنا ننتسب لحميد.. وجاء يوم الحساب على البقر! "ايه يخايب يصالح يا ابن الغبرا.. اتخيّطها من هان تفتج من هان!"

لو تساهلوا معي ولم يوقفوني متهما.. لا بد من وقوفي شاهدا امام هذا الحاكم الذي يتحدثون عنه ويقولون يهدر كالاسد، من اين لي قلب يحتمل صيحة الاسد؟! ان "عوية الواوي" في هذه الايام تكفي لسقوطك "يا صالح يا ابن الغبرا" جثة بلا حراك. فما الذي تفعله بك صيحة الاسد؟! كان همك الغنم. وها انت تغرق في لجة هم جديد.. محاكم.. وهدير اسود.. و"طلاب وشهود"..

اصفى للملا نعمه، وهو يقنع الفلاحين بوجهة نظره: ان محكمة الشعب تحاكم عهدا بأكمله.. وما الاشخاص الا رموز لذلك العهد و...

استشعر صالح ابو البينه، شيئا من الراحة، حملتها كلمات الملا. حاور الملا في سره وكأئنا يتودده: هذا كلام عقلاء.. لم يذهب عبثا تعلمك القرآن.. لا بد انها روح القرآن تجعلك هكذا.. تذكر دخول الاولاد في "كتاب"

ملا محسن. قال ابوه يومئذ: كم كان بودي ان تتعلم القرآن.. او يتعلم اخوك سلمان. ولكن اذا تعلم احدكما القراءة سوف يرفض "السروح بالغنم" ليتني دخلت "الكتاب" - لكنت في حال اخرى. ولاخترت مهنة غير رعي الغنم.

لم يتركه الملا ينعم بهدوئه، اخذ ينصح الفلاحين باقامة الدعاوى ضد الشيوخ في محكمة القضاء، او محكمة اللواء.. فأستاء صالح من توجيهات الملا، وخاطبه في السر: عدت الى ما كنت عليه، غلبك طبعك الشرير.. ولم ينفع معك القرآن. ما الفرق بين محكمة الحي ومحكمة بغداد؟ كلها محاكم ومشاكل و"طب واطلع.. وصبح ومسي بوجه مأمور المركز!!" يا لها من ايام سود "ايه يخايب يصالح" يا ابن الغبرا وين ما نويت ما صولي جعرا!...

ضرب حمود بن شنين جبهته بباطن كفه - تذكر شيئاً هاما - وانبرى لمخاطبة الملا: دعك من ضرب الفلاحين وقتل مواشيهم.. ولكن هل نسيت رقص الكاوليات والفرح الكبير الذي اقامه الشيخ عشية الهجوم على مصر.. وفي ليلة قصف بور سعيد بالذات؟ وكنت ليلتها تبكي مثل..

تخرج محمود في التشبيه. فضحك الملا واكمل القول:

- مثل النسوان..

كؤها لا اتخاف.. انه ما مستحي منها ..

تمنى صالح ابو البينه لويحدث شيء يصرف انتباههم عنه. فينسل من ديوانية الملا. لم يعد يحتمل هذا العذاب: انهم مصررون على ايجاد وسيلة لبهذلة بيت مهلهل - اه.. لواقصر الامر على بيت مهلهل.. فليبهذلوهم "للجير وللجهنم" ولكن يا صالح يا ابن الغبرا "اليغد يم الحداد يلوجه

الشرار!".

تحول قلقه الى غيض. وجد نفسه حانقاً على ولده جنيدي. الذي يطالب بشراء راديو: هذه نتائج الراديو.. سمعوا المحاكمة مرة بواسطة الراديو الملعون ففقدوا رشدهم. ويريد "ابن الثولا" ادخال الراديو الى بيتي. وكأن مصائبي الاولى لا تكفي. لا بد لي من مغادرة "كورة الزنابير". ويستقبلني اهل بيتي - مؤملين جديداً مفرحاً سمعته او رأيته في ربيعة ملا نعمه.. ولكن.. لسوء حظي وحظهم حين يكون جوابي مثل جواب كُعود ابن طاهر:

- جبت لك خبر ايزين شيبك وشيب ابوك.

- شنهو الخبر يا ستار؟

- ابوك مات!!

الفصل الرابع

ادرك صالح بعد فوات الاوان. بأن التوفيق لم يحالفه في اختيار الوقت. لمواجهة الشيخ. ولمح على وجه "الشيخية" كآبة لم يرها من قبل. لاح الحزن في عينيها كالقذى. وعلى شفقتها مثل الشتمة الجارحة فسائل نفسه: هل وصلتهم اخبار سيئة عن صحة الشيخ الكبير؟.. كانت طلقة المحيا قبل ايام.. بدت وكأنها تستعيد شبابها.. تنفجر طاقة وحيوية - مثل مهرة معافاة لم يلامس ظهرها السرج امدا طويلا.. وقالت ان متصرف اللواء اعرب عن اسفه لما حدث في القصر صبيحة الثورة.. وأشار على ضاري بأقامة الدعوى على الفاعلين.. لينزل بهم اقصى العقوبات.. وقال المتصرف - وهو ضابط كبير - ان ثورتنا ليست فوضوية ولن تسير حسب رغبات الغوغاء.. اعترم صالح ان يسأل "الشيخية" - ام ضاري - عن سبب الوجوم المخيم على البيت. والكآبة المرتسمة على وجهها. شرع يبحث في ذهنه المشوش عن عبارة لبققة تلح للسؤال. فاجأه ظهور الشيخ ضاري من غرفة نومه. متوجها الى القصر. محتقن الاجفان. مشعث الشعر. يمشي بتناقل وبلا حيوية: كأنه خروف خصي!

هرول صالح نحوه.. وقبل اطراف اصابعه. وتراجع خطوة الى الوراء.. عاجله الشيخ بسؤال. دون ان يلتفت اليه، او يرفع رأسه، اتقاء اشعة الشمس:

- ها ؟ شكو ؟

نسى كل شيء اعده في ذهنه، لا عجب فقد رسم للمقابلة صورة اخرى: كأن يكون الشيخ على مقعده.. وهو بين يديه يجلس باسترخاء على ارض الصالون اللماعة.. ويستهل كلامه بمقدمة، بعدها يدخل صلب الموضوع..

ولابد من نهاية محبوكة..

وجد نفسه خالي الذهن تماما.. فراح يلهوج ببلاده:

- يا امحفوظ الغنم نهبت الحرامية.. الحرامية نهبتها الغنم يا امحفوظ
الغنم باكت اهوايه من الحرامية..

اطلق الشيخ زفرة مسموعة، حرك يده سخرية وقال:

- يا غنم يا ملايكه؟ انعل ابو الغنم لابو اهلها.. احنا وين والغنم وين..
اشلون سخيّف انتّه؟!

واتخذ سبيله الى القصر، مخلفا ابو البينه اسير حيرته، لا يدري ماذا
يقول وكيف يتصرف.

ولما تواري الشيخ وراء الحائط الذي يفصل القصر عن حوش العائلة،
رجع الى "الشيخيه" وسألها بلا مقدمات:

- ام ضاري شنهي الحسبه يا ستار؟.. وكع گلبي من الخوف؟!

كانت مطرقة. اصابعها تعبت بالارض. اجابته دون ان ترفع رأسها: -
الگاع راحت.. ثم اوضحت له: صدر البارحة قانون الاصلاح الزراعي،
ينتزعون منا كل الاراضي، عدا الف دونم، لا نعرف اين موقعها.. اذا ما
خيرونا فلابد من اختيارها حيث يقع القصر والبستان.. وهذا المكان اسوأ
ما في المقاطعة كلها، حيث تحول، الى سبخ منذ سنين.. لم تكن عندي فكرة
واضحة عن الارض ومساحتها من قبل.. البارحة فقط، افهمني ضاري: ان
هورة البترا وحدها سبعة وعشرون الف دونما.. وان هذه المساحة، التي
تبدو صغيرة، بين البترا والقصر، هي ثمانية الاف دونم.. وان مشروع
العلوه اثنان وعشرون الف دونما.. والصالحية تسعة الاف.. ومويلحه سبعة

والسرايه الف وخمسمائة..

بعد ان عرفت هذه الحقيقة، وسمعت ان حصتنا الف دونم لا غير، بموجب القانون، بصقت على الالف، وقلت لضاري: اذا جد الجد نرحل الى بغداد، ذلك افضل الف مرة من البقاء هنا، اتعذب برؤية الشيوعيين يعبثون بأرضنا.

رفعت رأسها فجأة، وقد اتسعت عيناها. وكورت شفقتها، وتساءلت بصوت حاد الذبرات: ولكن اتظن الله يسمح بهذا؟ ويرضى بأنهيار مضيف مهلهل، العامر دائما بتعزية الحسين، والذي لا يخلو من ضيف شريف او عابر سبيل على طول ايام السنة؟ اتظن الله يقسو الى هذا الحد؟

نفض ثوبه، فيما يلي الرقبة، حرك رأسه نغيا، وهو يقول:

- حشا وكفى.. حشا.. الله ما يرضى بالظلم.. أوجس خيفة من غضبها: قد تبادر بالسؤال عن سرقة الغنم.. وهذا هو المزاج السيء الذي لا يصلح للمناقشة.. وهي من نوع النساء الذي يحسب لغضبه الف حساب.. وقد وهبت حيلة ودهاء قدر ما وهبت عافية وجمالا..

سكنت فورتها، وانطفأ غضبها المفاجئ، وعادت ثانية تعبت بالارض، بمفتاح كبير، من بين مجموعة مفاتيح متعددة الهجوم والاشكال. هيا نفسه للجواب عن عدد المسروق، من غنمها الخاصة.. ومن شياها زوجة ضاري.. ومن غنم الشيوخ الكبار..

سنم الانتظار. ثقل عليه الصمت. كلما طال ترقبه لسؤالها اضاع شيئاً من اجوبته المعدة.

جاءت الطباخة، تطلب من الشيخية فتح مخزن الحبوب والاغذية، فغادرته

الشيخية دون كلمة و سؤال. نهض على عجل - واسرع الخطى. ولما تحرر من باب الحوش تلفت ليستوثق من نجاته. ولا احد يدعو للرجوع: ولا كلمة استجواب. ابتعد عن الحوش غير مصدق: ايمثل هذه السهولة؟ "اندفعت بكعبه ما احتازت مردي؟!"

واسترجع صالح عباراته التي القاها على مسامع الشيخ والشيخية: قلت ما فيه الكفاية وقد اعذر من انذر. ابلغتكم فلم تعيروني اذنا صاغية، قلت لكم ان اللصوص سرقوا كثيرا من الغنم، فلم تجيبوني بشيء ولم تنصحوني.. وهكذا فتحوا الباب على مصراعيه!

وقت مناسب اختاره لك الحظ - يا له من زهول رائع اصاب الرجال والنساء على حد سواء. لقد كانت تحاسب على "عطب" الصوف.. تدقق في جلد الذبيحة لتعرف عمرها. الان ادركت ان الله بجانبني.. ولن يخذلني ابدا. بعثني اليوم وليس امس لابلغهم الخبر وهم ذاهلون - يا له من زهول رائع- مضى اسبوعان وانا في حيرة.. متردد من المجيء.. لو جئتهم امس لامطروني بأسئلة لا عد ولا حصر لها. كيف سرقت. وكم عدد المسروق - وبمن تشك. وكيف اختارك اللصوص من بين كل الناس وهم يقولون: لم يبلغ عن حادث سرقة في الريف كله منذ اليوم الاول للثورة وحتى الان. ولماذا تسكت كل هذه المدة ولماذا ولماذا.. اسئلة لا تنتهي ولو تأخرت اليوم وجئتهم غدا فربما افاقوا واستعادوا رشدهم.

ما اروع العمل المناسب في الوقت المناسب وما احسن التبليغ عن سرقة الغنم في صبيحة صدور قانون الاصلاح الزراعي!!
لا تقخر بذكائك يا ابن الغبرا.. ان ما جرى بتدبير العلي القدير.. ينبغي

ان لا اشك لحظة في هذا.. يتعين عليّ من الان فصاعدا تعلم فروض الصلاة.. وابواب التوبة مفتوحة للمسلم حتى لآخر دقيقة من حياته..

خلع كوفيته. رفع وجهه الى السماء. مد ذراعيه الى اعلى ثم دعا ربه في سره: الهي بحق انبيائك واوليائك - بحق السادة والاشراف.. اجعل الثورة تراوح في مكانها.. فلا تتراجع خطوة الى وراة وعندها يفيق الشيخ من زهوله. ولا تتقدم خطوة الى امام فيزداد الفلاحون هوسا. ان هذا الحد الذي بلغته الثورة يحقق النفع لكل العباد- يا رب العباد.

جانب الطريق ليستظل بخميلة شوك عالية.. لف سياركة واشعلها. زايله الاشفاق الذي ألم به، غداة الثورة، من اجل الشيوخ. وجد نفسه يوازن بين حسناتهم وسيئاتهم: ان الله عادل ما في ذلك شك - وقد اخذهم بظلمهم.. لم يكونوا سوى مغتصبين للارض، وقد عادت لاصحابها الشرعيين.. واما الغنم.. فالغنم.. اشترروا الغنم.. ولكن من اين جاءوا بثمانها؟ انها ثمار جهود الفلاحين اولا - ثم تكاثرت بجهودي وبتعب وكدح اهل بيتي. لابد ان الله ينظر نظرة خاصة تختلف عن نظرتنا للتعب.. يقدره حق قدره.. ولقد تعبت بما فيه الكفاية.. واذا كان الامر كذلك يجوز لي شرعا ان استرد اتعابي.

رفع كفيه بالدعاء، مرة اخرى، ورمق السماء بمذلة، بعد ان توجه نحو القبلة، ودعا ربه بصوت مسموع:

الهي وانت اللي اتدير الكون كله.. ما تغفل عن زغيره ولا جبيره.. انت اللي ترشد الناس والدبش لكن يا مولاي اسمح لي اقول حچايه بغير تعلم لك. (حاشاك يا رب العباد) لكن خاف شاغلتك مشاغل الكون.. وانه عبدك واين عبدك.. اخذها مني ملبلبه.. اريدك تخلي الثورة هيچ كون الاكطاعيين

مرعويين ما يفكرون بغير ارواحهم واتخلى الخوف جدام الفلاليح حتى لا يفوتون زايد وتمتد اديهم على حلال الناس وغنمهم! أمين يا رب العالمين..
أمين!.

شمل الغنم بنظرة، وهي ترعى في الطرف الشرقي من هورة البترا:
حسنا فعلت برحيلي عن تلك الدار الواقعة على طريقهم.. انها واحدة من افكار جنيدي وتدايبيره. ذكي وشجاع لولا الحاحه على الزواج ومطاليب اخرى.. راديو.. واصدقاء.

تراعت له الغنم كثيرة جدا، تغطي مساحة كبيرة من هورة البترا: اين يكون مرعاها اذا ما وزعت الاراضي على الفلاحين.. واستقل كل فلاح بقطعة ارضه?..

يا له من عيش سعيد -ان يملك المرء قطعة ارض واسعة.. يتصرف بها كيف يشاء.. ولم لا اكون واحدا منهم.. واملك قطعة ارض? لقد كنا هكذا.. نرعى الغنم ونفلق الارض.. ثم صرفتنا غنم الشيوخ لكثرتها عن الفلاحة. ويتعين عليّ التوجه مباشرة الى ملا نعمه.. اجس النبض.. انثر بضع كلمات " حلاوه بجدر معطور! ".

هياً عبارات، من النوع الذي يستطيه الملا.. بعضها شتائم للاقطاعيين:
ثم اسأله فيما بعد ان يعتبرني واحدا من الفلاحين، لأحصل على الارض.
واذا ما جعل الغنم سببا لحرمانني من الارض اجيبه: "الغنم ليس عواري"
اعيدها لاهلها.. وقد ابيع شياهي.. وانصرف للفلاحة كلية!

وجد ديوان الملا مكتظة بالفلاحين. جاءوا من كل المناطق المجاورة.
يستفسرون عن مواد قانون الاصلاح الزراعي فقال مع نفسه: بلغت ما

تريد يا ملا.. جاء وقتك لتثار من قاتلي الحسين.. وتوزع الجنة على التابعين والمريدين.. وليزيد واتباعه جهنم ويئس المصير.. فلتضع الشيوخ في موقد القهوة.. لن احشر معهم على اية حال.. اريد الجنة ياشيخ.. فأنا براء من يزيد.. عجب من سماحة الملا نعمه. وجوابه المريح بلا مناكدة. ولا اشارة للغنم: سجل اهلك مع اهل "الصالحية" لتأخذ قطعة ارض اسوة بالفلاحين. هكذا اجابه الملا. واتبع ذلك وهو يضيف : هل نسيت ان الصالحية تحمل اسمك.. وكنت اول فلاح شق نهرها الصغير. واحياها بعد الموت؟!

اغتاظ ابو البيته من نفسه. ولعن غباءه المستديم: كيف نسيت هذه الحقيقة؟ العمى! "عمي چلاب يا اثول" قد عمرناها يوم كانت قطعة صغيرة -لم تتسع كما هي الان. كيف نسيت هذه البدهية؟ العمى يا اثول يا ابن الغبرا. الناس يختلفون الاسباب والمبررات للفوز بغنيمة ما.. وانت تتجاهل الحقائق التي تؤهلك لكسب المغانم؟ العمى!

رجع اللى بيته يحمل بذرة قلق جديد- ولكنه قلق من النوع الممتع اللذيذ- يتشوف بوارق امل في الحصول على الارض- ويخشى تعارض هذا المسعى مع خطته للاستحواذ على اكبر عدد ممكن من غنم الشيوخ : فكل منهما تحتاج لتدبير وتفكير وتنفيذ بارع وذكي.. خصوصا قضية بيع الغنم.. اما الانفراد بالصالحية -اعني حدودها القديمة- فتلك صفقة لا تعادلها كل الغنم.. سوف اضحي من اجلها كل غال وثمين.. مستعد لانفاق الف دينار.

ضاق صدره بما احتواه من اسرار : لا بد من المشورة.. هل اجمعهم..

افضي بكل شيء ؟ علمهم ينصحون بما هو اجدى.. اوينبهون الى شيء لم يخطر على بال. لكن هذا شيطان جنيدي سيصحو من غفوة.. ويعاود مطلبه الاول: الزواج من بنت عبيد وسكنى القرية.. وتكون رغبته اشد وبالأحاح اكثر اذا عرف بقضية توزيع الاراضي.. وتبدأ سلسلة المشاكل.. لقد وعدت زاير محيسن واقسمت يميناً بالعباس ان اسمح بزواج هديه بعد شهر واحد من زواج جنيدي.. وليس الان هو الوقت المناسب.. لدخول غريب في بيتي.. وكيف اتخلى عن جنيدي في هذا الوقت العصيب.. ما ان يتزوج حتى يهجر البيت ويأخذ قطعة ارض -لا بد من تخديره بوعود خلافة وتأجيل زواجه حتى تنجلي الامور.. لا يسعني الاستغناء عنه ابدا.. اما مهيدي فلا فائدة من استشارته ومشورته.. فليس له من سديد الرأي ما يعادل بعوررة طلي صغير اثول رخو- لا يشد الظهر ايام المحنة..

فمن ذا الذي استنصحه؟ اخ.. لقد عزت المشورة وندرت النصيحة -ذاك الذي يمكن الركون الى رأيه اخشى يقظته واصرارته على شيء لا اريده الان. وهذا لا يقدم ولا يؤخر. ولم تبق الا النساء! لقد كان من اسوء ادعية البدو بالشر على عدو لدود : "عسى شوارتك نسوان وجعايدك رضعان وراحتك جعدان".

اما ذاك الاخر.. ابن اخي. داود. فأن صحا من سكره جاد بفضلة رأيه على اولياء نعمته.. ومع ذلك أتبع المثل الشائع "اخذ الشور من راس الثور" اقصد الثور وابحث معه قضية الصالحيه.. ومن الافضل ان اطلعه على جملة مطامحي واكشف له كل اوراقى.

وجد داودا خالي الذهن تماما. من أي فكرة عن قانون الاصلاح

الزراعي. شأنه في كل قضية عامة. لم يأخذ رأي الشيخ. كأنه يتعمد اغلاق ذهنه. وحجب الرؤيا عن نفسه. مخافة ان يتكون له رأي قبل الوقوف على وجهة نظر الشيوخ!

تنبه داود من غفلته. واستيقظت غرائزه بعد تبدل احدثته الثورة بصدمتها العنيفة. استعاد حديث عمه عن هورة الصالحية وامكانية الاستحواذ عليها. بهذه الطريقة او تلك : وساطة عند الشيوخ.. دنانير للمتنفذين الجدد.. وقد تسود شريعة الغاب فيمسكون بناذقهم ويستولون على ارضهم التي استحصلوها بعد بوار. وعلى اية حال "واوي يسعى احسن من سبع نايم" ولا بد من الحركة وجس اكثر من نبض.

قال داود لنفسه : ان الشيوخ يعرفون عن القانون ما لا يعرفه انسان آخر.. هذه حقيقة لا جدال فيها. ولكن الحد الاعلى الف دونم.. ان لا يملك شخص اكثر من ذلك.. واذا كان الحل هكذا يتعين على الشيوخ ان يسجلوا الالاف بأسماء المقربين - وانا اولهم - واذا سمح للنساء بتملك الف دونم فقد يسجلون الفا بأسم "زينه" ان مقاطعتهم تزيد عن الثمانين الفا.. واذن.. فلا بد ان يصيب ملا علي الف دونم وربما عبيد المنتاز..

اسرج مهرته. وتنكب بندقيته. ثم قصد قرية الشيوخ. رجع بعد الغداء مباشرة. وقد فترت همته. مثل طائر نتف ريشه. وقد تراجعت آماله. حتى تجمعت في "بطلين عرق" سرقهما من خزانة القصر.

سمع عبارة واحدة من الشيخ. جسدت كل المخاوف والقلق :
-اذا ما تصير چاره لهالحكومہ.. احنا موزنين.. فلم ينقل العبارة داود.
بأمانة لزوجته. بل اعاد صياغتها على النحو التالي:

- ايكول الشيخ : احنا كلش موزنين.. ما تصير لنا جاره..
اختلجت شفتها. وابرقت اسنانها الجميلة. حين استوضحته
-اشلون؟

- الشيخ خايف كلش..

بدا وكأنه الشحوب يزيدہ فتنه. سألته بقلق:

- خايف! ليش خايف؟

- امأيس فردنوب..

ترأى وجهه كالحا مقززا. وهو يروي اخبارا محزنة. غشيتها كآبة
عميقة. اختفى مستقبلها وراء ظلمة حالكة : ضاع شبابي.. وخسرت عمري..
كنت امضي ايامي هنا على امل لقائه.. وعودة الحياة معه سيرتها الأولى..
فأذا حرمت منه للابد.. أي معنى للعيش معك ايها الثور الخصي؟!

* * *

لا بد ان اقتنص منه عشرة دنانير. بأية وسيلة. هكذا قرر داود. وهو في
الطريق الى بيت عمه. صالح ابو البيئه. بادره عمه بالسؤال لحظة ترجله عن
مهرفته:

- هاه.. بشر؟ (رؤيتك)

لا تجلب البشائر.. لعن الله الثورة التي جعلتني اصطنع لك البشائر).

- خيرات ان شالله..

(لابد انك تعني تحسن وضع الشيوخ. اعرفك اثول. الكلب يتبع صاحبه

مع الجوع والشبع!)

- شنهى ما شنهى اخبار التصالح الزراعي.. اخبار شيوخنا؟

(لو قلت لك انهم في اسوء الحالات اليأس لادرت ظهرك ولم تمنحني
فلسا واحدا)

- لا اتخاف على شيوخي..

(من قال لك ايها الاثول اني خائف على الشيوخ؟ أتمنى من كل قلبي ان
لا تقوم لهم قائمة بعد اليوم وان لا يفيقوا من ذهولهم..)
- عندك اخبار جديده؟

(لا بد لي من اختلاقها -والا فمن يقرضني عشرة دنانير).

تعمد داود ان لا يطيل الفترة فسارع يقول:

- خجلت اداعي الشيخ بماموريتي وأنه محتاز عشر دنانير قرضه.

يعلم صالح علم اليقين ان لداود مكافأة سنوية عند الشيوخ، مقدارها
خمسة اطنان، وانه لم يتسلمها بعد. ومع ذلك فكر قبل ان يجيب الطلب.

لو استولت الحكومة على مخازن الحبوب او نهبها الفلاحون من اين
يسدون له الخمسة اطنان؟ لا بأس.. لن تضيع.. ان تعدلت امورهم فهو
صاحب كلمة مسموعة عندهم.. وان تدهورت افدت منه بقضية الصالحية.
وعلى اية حال ستكون هذه العشرة خاتمة السوء. لن امنحه بعدها فلسا
واحدا.. وقد يجيء ذلك اليوم الذي اصارحه فيه.. واشفي غليلي من
سفاهته: "مثل شحم الجلب.. يلمه من فطيسة ويموع بجوعه!" لقد كنت
تكسب الكثير.. ولكنك ادخرته "عرك" في جوفك.. وعطرا فاخرا على بشرة
زوجتك.. حتى الشياه التي ورثتها عن المرحوم والدك بعثرت ثمنها ثيابا
وأحذية لابنة ملا علي.

هذه عاقبة السفاهة "والمأكدرها اغص بيها".

الفصل الخامس

اعتزم داود ان يكسب ود حمزه. فما اشد حاجته للعطف. وما اشوقه الى كلمة ثناء. بين عشية وضحاها تنكر له اقرب الاصدقاء. وجافاه صفوة احبابه. ويرتفع جدار حاجز يزداد سمكا، مع الساعات والايام. يفصله عن العالم كله. حتى راوده احساس رهيب.. ان لا مكان له في قلب زوجته: نظراتها مثل نظرات الفلاحين.. تصمت مثلما يصمتون.. ليتهم يعاتبون على فعل صدر عني في غابر الايام.. ليتهم يحاسبون.. ليتهم.. ان صمتهم اقسى وابلغ تأثيرا من الشتائم.. لكن نظرات حمزة تنكسر على جدار الجسم.. لاتنفذ بالحدق الى الاعماق.. وعليّ ان اكسبه.. وليتني انفعه:

- ابو مطشر..

- نعم..

- اللّٰه ينعم عليك. افتهمت من الشيخ -اللّٰه يحفظه- هواي قضايا عن قانون الاصلاح الزراعي..

- ايه.. شلون بروح والدك؟

- كسر بجمع. يعني. غانون الاصلاح الزراعي. يعني. بكل "العوراق" معناه الكاع ترد لاهلها..

ومن التلميح الى التصريح: ديمة خلف مثلا لايحتاج اثبات عانديتها الى كبير عناء- حتى الشيخ نفسه بوسعي اقناعه. عليّ الاقرار بأنها كانت للمرحوم خلف. وغدت من بعده للوارثين. وما الذي يحول بين الشيخ وهذا القرار؟ مادام الاستيلاء هو المصير المحتوم للارض. لم لا يكفر عن خطيئته.. ولا يكلفه التكفير مالا ولا جهدا..؟! انا واثق مما اقول وعندي اساس متين لهذه الاستنتاجات:

تهلل وجه حمزه. امتلاً قلبه بأشراقه امل. حاول الاستزادة من داود. ليستوثق ان كانت هي افكاره الخاصة ام انها تستند على واقع ملموس. كأن يكون الشيخ هو المبادر تصرّيحاً او تلميحاً. ام انها مجرد احلام وتخييلات؟

تخلص داود بلباقة. ولم يجبه بما يبعث على الطمأنينة الكاملة. فنشط ذهن حمزه. بحثاً عن وسيلة تحقق ذلك اللحم الذي اوشك ان يضيع تحت ركام الاحداث والسنين: حلم خلف بديمته. والمياه تتدفق وسطها. وتدفقت فعلاً. ولكن بعد استحواز الشيوخ عليها.

واستكان مرة اخرى الى حلم عودة العثمانيين- يحكمون العراق.. فأخرج وصولات الضرائب القديمة ولوح بها: قائلاً: "هذا يومهن يا سفيه.. اتكول موصهن واشرب مايهن!! هسة يردون الترك ويطلون غوانين الانگريز وتردلي ديمتي اللي اخذوها بيت مهلهل بغوانين الانگريز" والان ينفرج باب الدهر ولكن ليس عن سلطة العثمانيين. بل عن سلطة فرهود وجماعته.. فأين انت يا فرهود؟ اخذت القضية على علاتها وبخذافيرها يا سفيه!" شلون اترك جماعتي؟" عجبني لهذا الصنف من الناس يصدقون كل مايسمعون- ويتبعون كل ما يقولونه! لايد من استدعائه واحضاره باية وسيلة.. ان وجوده هنا ضمان اكيد لاستعادة الديمة. غدا ابعث مطشر.. انقده مبلغاً من المال يكفي لاجور النقل ومصاريف الرحيل. وأبرز وصولات الضرائب القديمة لحكومة الثورة: هذه وصولات.. الديمة.. اغتصبوها بيت مهلهل.. ومن اجل هذا ناضل خلف وفرهود.. وأنا؟ وأنا؟ " ربما كذبني فرهود.. ويقول الاحمق: متى ناضلت يا صديق الاقطاعيين؟ الم تجبرني على الرحيل

ترضية لهم؟! هل يقولها الاحمق امام الغرباء ويفسد كل شيء؟، لا اظن. خصوصا اذا كانت القضية تتعلق باستعادة الديمة. وقبل هذا لابد من شطب الماضي ومحو آثاره. ولن اعدم الوسيلة الى هذا الغرض: يافرهود كانت المسألة في اقصى درجات التعقيد. لو لم اتخذ ذلك الموقف. لرحلنا نحن الأثنين.. وكنت ترى عائلة جرارة لامعيل لها سواي.. وكان المرحوم عهد ذاك على فراش المرض.. وعلى العموم فقد كنت مضطرا لاختيار الجانب السيء من القضية.. والان علينا ان نبدأ صفحة جديدة.. ونبذل المستحيل من اجل الديمة.

ان مركزه الممتاز بين الفلاحين. باعتباره شيوعيا. وصداقته ملا نعمه كفيلة باسترجاع الديمة ...

فاجأهما حمود بن شنين. كانه هبط من السماء. او شق جوف الارض. وعلى وجهه ابتسامته الطفولية المعهودة. كما لو رسمت بالطباشير. فوق بشرته النحاسية. فلم يجدا في ضحكته مايدعو للتساؤل انما الغريب ان لايضحك حمود. وينبغي سؤاله. اذا لوحظ الجد على محياه. رمى عبارته بغير كلفة:

-هاه؟ السركال والمامور متجمعين. بغير فلاليح!

قهقه عاليا واطاف:

- مثل حامد النصيري. فرد خيال وياه ويصيح: ريشه ياخيل! افرد

اصابع كفه وحركها في وجه حمزه قائلا:

- لا سراكيل بعد اليوم!

لم يكن تركيب العبارة هكذا. انما جوز لنفسه ملائمتها للموقف. سمعها

من ابن عمه. عوده الكبر. قبل ساعات لاشيوخ بعد اليوم" وهو يشرح قانون الاصلاح الزراعي. في ديوانية عبيد المنتاز. حسب مزاجه وطبقا لرغباته.. يضيف احيانا مواداً الى القانون. ولما اختلفى به حمود وسأله: كيف عرفت القانون واخذت على نفسك مهمة شرحه؟ اجابه عوده بصراحة: الواقع انني لم افهم من القانون الا الشيء اليسير. الذي سمعته من ملا نعمه. ولكنني تحدثت للفلاحين عن قانون اصلاح ينبغي ان يكون كذلك. وكرر عبارته التي قالها هناك:

-المهم.. لاشيوخ بعد اليوم!

وجرب حمود حظه. في شرح قانون الاصلاح الزراعي لحمزه ولداود. على مذهب ابن عمه. عوده الكبر.. ثم تطلع في وجه حمزه املا في رؤية علائم السرور عليه. واستعدادا لسماع احدى دعاياته التي يستمرئها حمود.. لكن الصمت ظل مخيما على حمزه وداود سواء بسواء.

شغل حمزه بما سمع.. وليس فيه اشارة الى تحقيق حلمه عن الديمة. وسائل حمود نفسه: اتراه أسفاً لضياح السركلة؟ ياللمغفل.. وما الذي يجنيه من السركلة غير عشرة بالمائة من حاصل عشرة فلاحين؟! ثم لم يكتم ما دار في خلده. فسائل حمزة بسخرية:

-ابو مطشر يبين مذهب على السركلة؟ چنك موش فرحان اتصير ملاچ.. اظنك مثل الجوال السووه سلطان.. وكال لصاحبه يوم من الايام "اويلاه جواد ياخوي يتذكر ايام الهوش.. من يگول للهوش وحيه يطلع شعر من تريبوش!!

ثم التفت الى داود. ولاول مرة يشفق عليه: مسكين فتح عينه خادما في

القصر.. ثم مامورا.. وابتلي بزوجة مبذرة لم تترك له مدخرا.. "ابتلي؟!"
كيف ابتلي يا مغفل ياحمود؟ انها كنز يساوي البترا والعودة والسايح!"
المابنوش العنكود يكول حامض":

- يابة انت ياداود -لا اتدير بال.. هم تاخذلك وصلة كاع.. حالك حال
الفلايح.. وتتعلم على الفلاحة..

اجاب داود بمسكنة. وكأنه سمع لائحة اتهام خطيرة:

- ياحمود غابل السجان اليوكف على باب السجن هو حابس الناس؟ انه
يعني اشتقريب عد الشيوخ هالشكل مثل السجان.. هسة رديت لاصلي
فلاح.. غابل انه يعني شتقريب..

قاطعه حمود. وفي صوته نبرة مواساة:

- ماعلينا من المضى.. احنا اولاد اليوم..

* * *

استعرض داود في ذهنه. رواية حمود بن عوده الكبر. الف دونم لبيت
مهلهل كلهم. نساء ورجالا : قد يكون الامر كذلك.. فقد رأيت الشيخ يائسا
وان لم يجاهر بياسه..

تبدد حلم داود الذي صنعه من نسيج عنكبوت : وانن فلا الف لي ولا
لزينه ولا هم يفرحون !

تفحص كفيه. وردد في سره: وداعا ايتها الكف الناعمة.. استعدي
"للمسحاة" والمحراث لتصبحي مثل كف عوده الكبر خشنة قذرة.. ولبس
عاقبة "الموامير" !

شرب كأسه بجرعتين. تضاعف احساسه بالوحدة. حاول استدراج

زوجته للحديث - أي نوع من الاحاديث - فلتشتمه. اذا لم تحسن غير هذا. لم ينجح في اغرائها على نزع الكآبة.. ومغادرة الصمت الرهيب الذي لازمته منذ اسابيع.

بدأ الراديو يذيع وقائع جلسة المحكمة.. اعتصر الالم قلبه. كأن كف عوده الكبر تتقبضه بخشونة:- سيأتي الشاهد وملء جوانحه الانتقام ليشهد على الوزير ويكيل له السباب.. وصدى طبطبته بالأمس على اكتاف الوزير لم يغيبها الزمن - هذا شيء اكيد " ما ننسى فضلك يا داود للموت.. انت شريف.. انت ادمي ونص" ويشيح بوجهه عني يوم امس.. ولو عثر حظي ووقفت متهما.. لتطوع بالشهادة ضدي وقال بكل تأكيد: " هذا جلب ابن جلب وغيره سز حيل دوركم اياه!".

اقفل الراديو بعصبية. وغادر مكانه متمهلا. استدار في باحة الحوش :
الراحة بالبكاء.. ولن يتحقق هذا الا بسماع صوته الشجي.

تركها وحيدة وذهب الى بيت حمزه. شيعته بنظرة حقد واحتقار. اقتربت من سرير الطفل.. وجدت نفسها تحاور الشيخ ضاري وتقسو عليه بالعتاب.. بعد ان رسم لها مصيرا مظلما : ربط ثقالة في عنقي ورماني في لجة النهر اصارع التيار.. وقد اصبح عاجزا عن تقرير مصير نفسه.. يلبد في قصره مترقبا - يتجرع الخوف دقائق وساعات. "ابني ليج قصر ابغداد" لم اسأله ولم اسائل نفسي بأية صفة اجلس في القصر ولست زوجته.. وما ان لمحت الى ذلك حتى نهرني "لا اتصيرين سخيغه.. الزواج شنهو الا- اتكولين نعم ! المهم انعيش سوا.. " واستلقيت على فراشه كأني عاهر لم تحسب لغد حسابه.. "هم تحسبيه رجال؟.. حجرته بالقصر وياي.. بأي

وكت اريد ابعده.. اوديه بشغله يوم ويومين ونبقى اتي وياچ..”وزرع طفله في احشائي.. وهاهو ثقالة اخرى تشد عنقي”..

مسحت جبهة الرجل برفق : ما ذنبك انت يا حبيبي؟ لن يضيرك شيء..
ما كل من حمل اسم اب هو ابنه حقيقة.. هكذا علمتني الحياة..

سمعتة يناديها عند باب الحوش:

- ام سليمان.. وياي مطشر- افرشي لنا السجاده بباب الجمالي.
دخل وراءه مطشر. دون ان يعطيها فرصة العثور على عبااتها. جلست القرفصاء جوار السرير ريثما يمر مطشر. ردت له تحية المساء ببشاشة.
كرر داود طلبه:

- وين السجاده؟ يابه لا تنخبصين. مطشر مو غريب..

خامرها احساس بزوال الملل. الذي يورثه الانفراد مع داود. تخففت قليلا من وحشتها. استعادت شيئا من نشاطها الذي افتقدته منذ اسابيع..
فأشعلت النار.. وخدرت الشاي بحماس ملحوظ..

تناول مطشر من يدها استكان الشاي. ولم يتم نظرتة الخاطفة : انها من صنف النساء الذي لا يمكن التطلع في وجهها بلا كلفة.. الامر يستلزم الكثير من الشجاعة. مرة اختلس منها النظر وهي تقتاد الطلي الى باب الحوش. وشملها في اليوم التالي بنظرة استأثر فيها قوامها بمعظم انتباهه..
وكانت تتحرك بحيوية مثيرة. وهي تساعد اهله على طبخ طعام فاتحة جده خلف: ان في عينيها شعاعا يخترق الصدر وينفذ حتى الاعماق.. ولعلها تقرأ ما يدور في الخواطر. فعلي ان احترس من نظراتها..

شرع يغني استجابة لرغبة داود. بصوت خفيض. قدر له عدم تجاوز

اركان الحوش.رفع صوته بعد بيت الابودية الثالث. تلاحقت زفرات داود.
كتمت (زينه) عواطفها المستفزه..

اقترح داود بعد تجرع بقية كأسه. ان تقترب منهما (زينه) بدلا من
جلوسها وحيدة قرب السرير :

- مطشر مو غريب.. صار واحد منا.. يعني اشتقريب..

احدث اقترابها خلا في صوت مطشر..لم يظن اليه داود لانشغاله
بعويل نفسه : .. ياله من سقوط.. سقوط من حالق. لم يدخروا شيئا يركن
اليه.. مرة داعبه مدير الشرطة "شيخ ضاري..المصرف مالك بكذ ميزانية
الاردن!!" ولكن مقابل ذلك الانفاق مائة الف دينار وارد المقاطعة" الفلوس
كلهه خليناها بالكاع ياداود" كان معجبا بمبدا حجي حسن في الحياة
ويضحك كثيرا لسماعه الحكاية" يملك الحجي الف راس من الغنم.. جاء
يستمتع بمشاهدتها.. امضى ليلته في بيت الراعي. حمل الابريق وقصد
الخلاء.. اتخذ مجلس الخلاء وسط الغنم. انطلق الريح من جوفه قويا
فاحدث صوتا غريبا على الغنم فاجفلت.

ولحظتئذ قرر الحجي بيع الغنم.. ثم اشترى بئمنها قطعة ارض.. وقال
للراعي الذي اكثر الملامة والعتاب على بيع الغنم:

لقد استقر رأيي على بيعها منذ تلك الليلة. حين اجفلت من الضرطة..
وقلت لنفسي. ليلتها: بئس الذخيرة التي تجفل من ضرطة.والان هاهي
قطعة الارض التي اشتريتها بئمن الغنم. بوسعك ان تضرط فوقها انت
وكل"الوحيالات" فلا تجفل حجارة ولا نبتة!
ضحك داود وقال. بلسان اثقله السكر:

- ضرطة حجي حثن!

اجفل مطشر. وتوقف برهة عن الغناء. ليتفحص وجه داود. فبادرته زينة
باشارة تحمل معنى الازدراء لزوجها. وقالت:

-ابو سليمان صار خرجة!

واقترحت عليه مواصلة الغناء. تجراً فملاً عينيه. حتى الاهداب. من
وجهها المشرق. برغم نظراتها المتسلطة..

رجع داود يصغي الى عويله الداخلي: اكان من الحكمة انفاق ثروتكم
كلها على الارض؟ لم تشبعكم هذه المقاطعة الواسعة.. قفزتم الى "البيضا"
واشترتيم نصيفتها بسبعين الفاً.. ثم طردتم شريككم في مشروع العلوة"
ياداود تورطت وتفاصخت وي الجليبي.. كلفتني حصته اكثر من ثلاثين الف
دينار" وضعت كل شيء في الارض جريا على مذهب حجي حسن.. وها
هي الارض كلها تجفل من ضرطة عوده الكبير!!

ضحك داود مرة اخرى وغمغم:

-..ن كاع..ها..ضرطة عودة الكب...

اشارت بكفها ما معناه لاتحفل به.

اطال النظر في وجهها.. غنى بصوت اكثر عنوبة.

واخذ داود يسائل الشيوخ: لو احتفظتم ببعض ثروتكم نقودا. لاسستم
معامل وشركات.. وعشت معكم في بغداد.. اما وقد صيرتموها ارضا
كلها.. ستخرجون منها كيوم ولدتكم امهاتكم-وانا كذلك. ان قضيتي
الخاصة تهون.. فلا يشق علي العمل..اي عمل..سائق سيارة. اوشرطي
امن.. او اكتفي بقطعة ارض مثل بقية الفلاحين.. ولكن انتم.. انتم كيف

بكى داود فتعثر صوت مطشر ثم كف عن الغناء. اسند داود راسه الى جدار الجمالي. وبعد لحظات ارتفع شخيرته.

احس مطشر بحراجة موقفه: لم يعد وجودي مبررا.. لقد نام زوجها. نهض على عجل. فقالت زينة. بعد فوات الاوان:
-ابق شوية بعد..

استكبر الامر.. لم يجد في نفسه الشجاعة للبقاء. اكتفى بلفظ "لا" وغادر الحوش مرتبكا.. وفي اذنيه صدى صوتها الناعم:
-هلا بيك-هلا.. الف هلا..

* * *

قصد الصويرة صباح اليوم التالي. ليبلغ عمه فرهود وصية ابيه. وتأكيده على ضرورة الرحيل العاجل الى البترا. اخذ يفكر بزينة. استعاد ادق التفاصيل واكلها اهمية.. منذ دخوله الحوش.. وتقديم استكان الشاي.. والنظرة الساحرة: وما معنى "ابق شوية بعد"؟ و"ابو سليمان صار خرجة"؟ اتراما تستهين بي وتعاملني كطفل؟ ما معنى بقائي- وقد ارتفع شخير زوجها؟ هل كانت تريد الاستمتاع بغنائتي؟ ايكون الامر هكذا.. وانا الذي حملت المسالة اكثر مما تتحمل يالها من جفون فتاكة. تنغرز حيثما صوبت..

نسي الركاب واغفل ضجيج الباص.. وحاكى طرف جفنها وهي تقول "ابو سليمان صار خرجة" ربما هي تطرف هكذا دائما.. وبلا قصد معين.. لم ار عينيها من قبل لاحكم ان كان في تلك النظرة واختلاج الجفن معنى

اخر.

في امسية ذلك اليوم شعر. داود بوحشة مخيفة. وكانت اقرب الامنيات الى قلبه حضور مطشر. ليغني له ابودية. تعتمر الاحزان من روحه فيطردها مع الدموع: طوافة النجاة الوحيدة التي عثرت عليها في لجة الاحزان. شح بها الدهر وغادرنى الى حيث اجهل موعد رجوعه. لقد داوى جروح نفسي ليلة البارحة.. واهرقت الدموع بسخاء. فتخففت من احزاني. اين يلتجئ الطريد؟ وبماذا يتشبث الغريق؟ حتى هذا الراديو الملعون ما عاد يقول الا المزعج والمقرف.

اطبق عليه الياس من كل جانب. لا مبادئ يعتصم بها-ولا ايمان يلوذ به. فيستكين الى صلاة ومسبحة.. ولم يعرف حياة الاستقلال ليفكر بخطة تفصيلية.. فتح عينيه تابعا للشيخ ينفذ ما يطلبونه بدقة. دون وعي ولا ادراك احيانا. فسحة الامان الوحيدة في هذا العالم كأس العرق.. ولكنه يكثف اليأس ويلح في طلب الدموع: لراحة الا في البكاء.. فاين انت يا مطشر؟ ترجم هذه الرغبة بقوله: لو مطشر اهناه... چان واحد استراح شوية على غناه..

كانت. هي الاخرى. تفكر بمطشر. شعرت بحاجتها الى سماع صوته ورؤية وجهه. كانما تعودت ذلك منذ امد بعيد:.. لو لا غلالات الخجل الملعون.. تدثرك مثل عذراء بين اخوتها واخواتها - وربما هي اقل حياء واكثر جراءة على مخالسة النظر-لو لا هذا فما احلاك وما اشهاك.. ويتعين على ان اكون البائدة-لأمزق تلك الغلالات.. لست ادري كيف تنام مع زوجتك وكيف تضاجعها.. حرام ان تذوي زهرة شبابك الغض بين يدي بنت

جوده-وهما لا تصلحان لغير اعتصار الحليب من ضرور الغنم.

رجع مطشر يحمل ردا من عند فرهود: لا استطيع الرحيل لان اختيار الفلاحين وقع علي لرئاسة الجمعية الفلاحية وفيما يتعلق بقضية الديمة يعتقد ان اثارها على هذا النحو لا يخلو من اشعبية مخجلة. وينصح بعدم الركض وراء سراب خادع. فالثورة لم تنتزع الاراضي من يد الاقطاعيين لكي توزعها اقطاعيات جديدة على السراكيل.

استاء حمزه لهذا الرد. واشتد به الهياج. ثم اطلق لسخريته العنان ولذع اخاه بلا رحمة: السفية يعتقد ان منطقة الصويرة- بعد رحيله عنها- سوف تتقاذفها امواج الرجعية والاستعمار.. وتغرق في بحر الاقطاع الواسع! هو وحده الريان الماهر والسياسي المحنك.. اختاروه رئيسا للجمعية.. فرأى نفسه شيئا كبيرا جدا.. جدا.. كما رأأت زنوبة ولدها- شرطي المرور- ابني جبير كلش كلش.. ورتبته عاليا فوك فوك.. لو شال وحدة من ايده يوجف سيارة الوزير!!

استبشر داود بمقدم مطشر- وفرح لعودته السريعة. بادرت "زينة" لكنس الحوش بعناية. ورشته بالماء. فبدأ نظيفا رحابا. لم تلاحظ سعته من قبل- ولم تعجب باستقامة اضلاعه ونصاعة جدرانه. وكأنها طليت بالجص...

تأوه داود. وهو يفرط رمانة في صحن زجاجي ثم قال:

- اوف لو يشرب له بيك.. چان غنا احسن غنا..

تلقت الفكرة باستحسان. وامسكت راس الخيط: لقد وجدتها!! لا تمزق

غلالة الحياء إلا نشوة الشراب.. سابدل جهدي لتجريعه كأس عرق:

- لح عليه..

- لو يشرب ايهيم بغناه..
- بس اتكله يشرب..
- علواه.. اتساعديني عليه..
- (بصم التصريح على بياض وسمح لي بالتصرف ومع الرخصة علواه!).
- شوفه انتة اول مرة...

رفع ذراعه لتواجه الساعة ضوء الفانوس.. وقال بسأم المنتظر:
-صارت بالثمانية.. كتله لاتتعشى عند اهلك.

اوشك مطشر ان يقرع الباب. لم يستكمل الصورة بعد. رجع من حيث اتى . استدار حول مراح الغنم. اهله يصغون لوقائع محكمة الشعب. ابوه قصد ملا نعمه - ليتصرف منذ الليلة.. معتمدا على نفسه بعد ان صدمه جواب فرهود- استحضر صورتها وهي ترامقه "ابق شوية بعد" ولكن.. اما "هلا بيك.. الف هلا.." فذلك من مستلزمات الضيافة: ليته يدعوني لمشاركته الشراب..انني على استعداد الليلة.. جربت نشوة الشراب.. قال الاستاذ فاضل "هذا مقوي للغلوب" وخبط حمود بقوة على الدنك..قهقهه عاليا وصاح "هذا مكسور الركبه واسمه عليه" وهتف فرحان "دك ابو طبل أي نمل.. أي فجل.."

بلل شفتيه. براهما بلسانه.تحسس وجهه الحليق. حاول ان يفتل شاربه. فكان اقصر من ان تطوله الاصابع. سوى عقاله للمرة الثالثة. اماله قليلا: وارتداء البدلة مبرر.. فقد كنت في سفر بعيد.. والعباءة لاتقل فخامة عن قاط العرس. قرع الباب باصبعه. سمعها تلهوج"كل له اتفضل.. كل له اتفضل"

صاح داود:

- اتفضل اتفضل.

استقبلته عند الباب. القى تحية المساء بجرس رقيق:

- مساج الله بالخير.

- مسية العافية والصرور.

فرح داود مثل مدمن رأى رسوله يعود بكمية المخدر المطلوبة:

- يا خويه يا مطشر هاي وينك؟ خليتني مثل الجاعد على العبره.

امتاني البلم!

ترأى لها بهي الطلعة. في بدلته الجديدة. وحذائه اللماع- اجمل من

صورته المطبوعة في خيالها. كشف قميصه الناصع البياض عن سمрте

الداكنة اللذيذة. تضوع الحوش بأريج عطر حاد. ينتشر من طيات ملابسه.

اجاب على سؤال داود العابث حول العطر:

- چنت ضام شيشه ويه القاط. لكيتها مكسورة ومتبديه..

يا الهي ان فتنته لاتقاوم. هكذا اسرت لنفسها. قال داود بلهجة

استجداء:

- ارجوك.. ارجوك الليلة تشرب. ولو نص بيك حتى نتونس ونتعشى

سوا.

- اخاف يا ابو سليمان!

اصطنع داود ضحكة ونادى زوجته:

- اسمعي شيكول؟ اخاف.. اشرب!

لم تعلق بشء.. واكتفت بضحكة مسموعة.

اجاب مطشر على ضحكتها:

- كبل ما شارب.. واخاف اهلي ايجسون..

قهقهه داود. انتصارا. وقد رفع صاحبه. على استحياء. راية الاستسلام.

طلب من زوجته ان تأتي بقدر اخر..

اترعت القدر. بلا رحمة. شجعها داود على الاستمرار في العمل. ناولته

القدر بيدها. اخذه بكف مرتجف..

رفع داود كأسه وهتف:

- صحتك..

اجابه مطشر:

- اللّٰه يحفظك!

ورشف جرعة من كاسه.وثانية.. وثالثة.. لم يبق في كأسه الا القليل.

رق صوته في الغناء. اخذ الزغب بالتحول الى ريش. شعر ان ريش

القوادم يستطيل حين تجرع بقية كأسه. رن صوته ساحرا بعد ان جلاه

العرق. وغسل بقايا الخجل..

اختل قليلا صمام السيطرة. فرفع صوته اكثر من ذي قبل. فكانت تلك

الطبقة اكثر سحرا وعدوية..

استبدت بداود عواطفه. كرع بقية كأسه الثالثة. ثم تخلى عن خموله.

نهض من مكانه. لم يعين هدفا يقصده. استدار في باحة الحوش نشيطا. رفع

نرتعه الى اعلى كأنه يتمطى. وقف امام مطشر. اقسم برأس الشيخ ضاري:

ان لم يشرب صاحبه كأسا اخر. قتل نفسه بطلقة من مسدسه. كانت رغبة

مطشر في تناول الكأس الثانية لا تقاوم. بعد ان تفتحت عيناه على (زينه).

ولم تعد نظراته مقيدة بالخجل..

اترعت له الكأس الثانية. دون انتظار موافقة: اشرب ايها الطفل الجميل الخجول.. لا.. لم تعد خجولا كما كنت. لقد وضعت لك كمية تحملك على اختطافي من بين يديه.. ان كان لك قلب مثل هذا الذي يخفق مثل جوانحي..

ضاعفت لزوجها كمية العرق في كأسه الرابع: اشرب ايها الثور الخصي.. اريدك الليلة جثة هامة..

ابتهج داود لتصرف زوجته - كانت تنهره بقسوة اذا ما تجاوز الكأس الثالث: انها لا تريد غير مصلحتي.. تعرف متى ينبغي ان يشرب المرء بلا حدود. ومتى يكون الشراب لا معنى له. يا لك من حاذقة ماهرة..

تناول الكأس من يدها وهتف:

- فلتعيش ام سليمان..

ردد مطشرا:

- أي والله اتعيش.

وغنى برقة حسد نفسه عليها. لم يطاوعه صوته من قبل مثلما هو الان طوع اشارته بلا معوقات. شعر ان له جناحين يتصلان بصدره- وان في مقدوره التحليق وملامسة النجوم. احس شيئا عذبا يتصاعد بدفء من صدره حتى رأسه. فيفتح عينيه بلا حرج.. يتفحص وجهها وتلتقي النظرات يلامس بعضها البعض. فيسري خدر لذيد في جسمه.. وانفرجت شفتاه عن ابتسامة جريئة لامست جفניה وشفتيها..

تنسم عبير عرس يفوح بقوة فيملا المكان كله. شرعت ترامقه بنظرات

شهوانية. استأثرت وجنتاه بعنايتها. فقد اصطبغتاً بحمرة. هي ليست حمرة الخجل على كل حال. تراءى لها حب الرمان الذي يتناوله "مزة" يترك ماءه في وجنتيه مباشرة.

ضعف داود امام الصوت الشجي. فلم يقاوم اغراء الرغبة بالبكاء.. استسلم لعواففه.. واضحى لعويله الداخلي. فانخرط بالبكاء...

اشارت عليه بمواصلة الغناء- اشارة مثيرة. بالحاجب والاصابع. اطل من عينيها شيطان مكر شهواني. نثر الفلفل في دمائه.. اضطرب تيار عارم بداخله. لم يعد قادرا على تحويل عينية. صارت الرغبة مثل وشيعة الخيوط في يد كل منهما طرف ينشر منه السدى.. كانت اسرع وابرع.. ادركت مهمتها العاجلة هي لحمة السدى: مهما كانت آثار الشراب.. فإنه يظل بحاجة الى من يعلمه كيف يحبو ثم يخطو. ثم...

افرج داود كأسه. نظر الى كأس مطشر. رأى به بقية. مسح دموعه وقال:

- كمل البيك.. كمل..

قدر ان بقية الكأس تقضي على بقية توازنه.. تخيل نفسه مثل داود. متعثرا في مشيته. متلعثما في كلامه.. وقد يفتن اليه ابوه: وربما شهرت بيه سكوّنه. فأجاب:

- اخاف اشرب واكؤم اتطوطح!

حاول داود ان يضحك. فصدر عنه ما يشبه ضربات متلاحقة على برميل فارغ وقال:

- لا اتخاف.. يعني اشتقريب.. الطبيب حاضر.. يعني الطبيب...

ونظر الى زوجته. بجفون متشابكة. من اثر الدموع والشراب.. تعذر عليه فتح عينيه. حرك يده ببطيء وقال:

- فهميه لمطشر افندي!

شرحت له معنى قوله "الطيبيب موجود" : المسألة ببساطة حالما تشعر بثقل رأسك وتراخي جسمك اغسل فروة رأسك بالماء البارد - بطريقة فنية فيزول اثر الشراب- هكذا افعل مع داود احيانا. ولذا سماني "الطيبيب".
واستدركت توحى اليه بجرس معين:

- لكن دير بالك لا تعتمد على روحك بالنظاره اليشرب يجيه النوم صنطاوي! عدنا ابو سليمان ورا الشرب تكدّر اتشيله على ظهر دابة وتوديه لبيت سيد سراب. ولا يدري ولا يوعى كبل طلعة الشمس!!
ضحك داود. مزهوا بحديث عن حياته الخاصة.. وبدا له ان كلماتها تحمل معنى "التدليل".

سألها مطشر بجد واحتراس:

- بعد غسل الراس ما يضل اثر للشراب؟
اكدت له. بنفاذ صبر. ورمته بأشارة واضحة صريحة. فوضع الكأس على شفته فترة طويلة مترددا بين احتسائه بلا تحفظ. والخوف من افتضاح امره عند اهله..

وثمة رغبة تبديها زينه.. لا يعرف ان كانت تريده ان يشرب لمجرد الشراب او لاغراء داود على المزيد من العرق. سألها داود بمسكنة:

- ياللّه يا خويه.. غن شويه.. حتى نتعشى.

لما انتهى من غناء بيت الابوذية. عاودت داود نوبة البكاء. افرغ كأسه في

جوفه دفعة واحدة. وتناول بطل العرق. صب بقيته في كأسه. ثم دحرجه اليها فارغا وقال:

- احفظيه لعننا ابو مهيدي.. هليام صايره سولته بالبطاله!

غمرت الحوش نسمة رطبة باردة. فأرتجف مطشر وقال:

- بعد ما اقدر اگعد برا.. خلونا انطب للجمالي..

لم تنتظر امر الزوج او اشارته. طوت السجادة الثانية وحملت الفانوس.

وبعد دقائق دعتهما للدخول.

صار الضوء اشد قوة - والرؤيا اكثر وضوحا.. لدرجة تستطيع معها

ان تحصي الشعر في رمش عينه: كلاهما ثمل.. ولكن اين الحمامة من

الغراب وهل يقارن الخنزير بالغزال - بل هما ثور خصي وحصان اصيل!

قال سطر دونما قصد خفي:

- والعباس.. صار راسي بئگل اليشان.. يمكن ولا اقدر امشي!

ضحكت بلا حرج.. و اشارت بأصبعها الى داود. الذي ارتفق الوسادة

مغمض العينين. وبقايا الثريد على شفتيه وكفيه. ثم رفعت سبابتها وصالبت

بها شفتيها..

لم يطل بهما الانتظار. فقد اوقع شخير داود.. همست لمطشر:

- گوم اغسل راسك!

ارتعشت اوصاله. تعثر في مشيته. كان التيار جارفا. اشارت عليه

بالجلوس فوق طرف السجادة المفروشة خارج الجمالي. جلست قبالبته

تحمل ابريق الماء والمنشفة. طالبتة قبل مباشرتها بالعمل:

- انزع يشماغك. وبالطوك.. ومد راسك..

لم يعد يحتمل التعذيب. خائته ارادته. قرر الاعتراف على جميع "خلايا" جسمه! القى رأسه فوق صدرها بغتة- متظاهرا بفقدان التوازن.
ابعدت الابريق والمنشفة وتناولت رأسه لتجعله في وضع مناسب للتقبيل.
اطبقت شفيتها على شفته بنهم. تدلى زلفها برفق ولامس الآخر وجنته.
احس رذاذ العطر يرطب كيانه. تذكر مثل هذا العطر.. يوم صحبته زوجته
بعد الزواج بأسبوعين لزيارة كربلا والنجف... لم يكن واسع الخيال.. ولا
شغوفاً بالاحلام. بل هو شديد التمسك بالحقائق المادية والملموسة. ليدخل
صلب الموضوع فقد كلفته المقدمة صبرا لا عهد له به.

ارغمته على الاستكانة بين يديها.. خدرته بقبلة طويلة لم يعرف مثلها من
قبل ابدأ.. التقطت لسانه بشفتيها: لا بد انها الطريقة الفنية لازالة اثار
الشراب!! يا الهي أي طعم لذيذ.. لا الدبس ولا العرق ولا حتى القهوة.
كان اغراء جسمها. وقد تحسس نهديها. لا يقاوم ولا يحتمل المزيد من
الصبر. انتفض لرجولته "الموقوفه!". اخذ زمام المبادرة. وهصرها بعنف..
كان لصدرها ونهديها. بالذات. شفافية البلور وقوته.

غرزت اصابعها في فروة رأسه وراحة تداعبه.

خاطب نفسه وهو في نصف غيبوبة:

عويبة ابو جودة! هكذا والأ- فلا.. اما بنت المحروك جوده فلا تعرف الا
النوم على الفراش -بأستقامة وتشنج.. وكأنها فوق "سدية الطبيب" تنتظر
"جرنقه".

تذكر " محاضرة" عوده الكبر . ذات يوم اراد ان يتقفه! "البرجواريين
غذرين.. ليتني استطيع الضحك.. يقول ابن السلوك "البرجوازيه غذره"

هذه اطراف اطراف البرجوازية.. جنة لم احلم بدخولها عمري كله.. ملاً
رئتيه من العطر الذي يذكره بزيارة العتبات المقدسة.. ولامس صدرها
بشفتيه "البرجوازيه غدره" وهو النظيف ابن السلوك!..

لم يغادرها رغبة في الابتعاد -شأنه مع بنت جوده. ولكن مضى من
الليل اكثره: ليتني ادفن رأسي بين نهديها واغفوا حتى مطلع الشمس.

ولما اغلقت وراءه الباب الحت عليه الضحكة:

- البرجوازين غذرين يگول ابن السلوك!!

الفصل السادس

اصفى صالح ابو البيئه لكثير من الرواة. فتعددت الروايات. واختلفت التفسير لقانون الاصلاح الزراعي. فكل واحد ينسب روايته للملا نعمه. ليجعل لها قوة التنزيل: سمعت الملا باذني.. وسألت الملا عن معنى تلك المادة وشرحها على هذا النحو. وقال الملا هكذا- ولا بد ان هذا هو التفسير الصحيح. فاعتزم صالح ان يختصر الطريق. باستخدام ملا نعمه لبلوغ مقصده:

جاء الان دور الزعيم ملا نعمه! "بلايوش دنيا- كما قالها خلف" هرب بجلده خوفا من بطش بيت مهلهل.. ثم دار الدهر دورة حقيرة "وانگلب الطايك طبك" فعاد ليحتل مركزهم وزياده!. قال ملا نعمه وماذا تقول يا ملا نعمه.. وقد جئ ذلك اليوم فيقولون: "سبحانك ياملا نعمه!"

لم يتقنوا في حياتهم شيئا كما اتقنوا صنعة النفاق والتزلف. وانا واحد منهم -بالطبع- وان تكن بضاعتي اليه مختلفة. هم يتزلفونه بثرثرة لاتغني ولاتسمن: "الفلاح اخو الفلاح.. ويسقط الاستعمار والاقطاع..". اما انا.. "ادهن علياه" بحزمة دنانير واحدها "يذبح الطير" ولست بحاجة الي مقدمات.. ادخل صلب الموضوع مباشرة: اسمعني ياملا.. بدلا من تبديد الدنانير هنا وهناك وانسيابها بين اصابع عديدة -بعضها لا يستحق غير العض بانياب حادة- كاصابع الحامي و "العرضحلي" ومأمور المركز- هذا الي مصروفات الاقامة في المدينة واجور السيارات زهابا واياها.. ونفقات لم يحسب المرء حسابها.. اقترح عليك ان تاخذ المبلغ.. وتوفر علي-عناء المراجعات للمطالبة ب"هورة الصالحية".. وانا عليم بما تحتاجه مراجعة دوائر الدولة. ولن يغيب عن ذهني لحظة قول الناس "ادهن

السير وهو يسير.. وليس من العدل تكليفك مالا تطبيق. انا طوع امرك لدفع ما تراه مناسباً.. اربعمائة.. خمسمائة.. ستمائة دينار. لا تتردد. ولا تبخل.. اذ ما اعترضتك صعوبة..

ذهب الى قرية "العلوة" مبكراً. فقليل له : ان الملا قصد المدينة يحمل طلباً. وقعه كل الفلاحين. لتأسيس جمعية...

توهم صالح ابو البينة انهم يطلبون التجمع في قرية واحدة. فتسأل مستغرباً: ولم يتجمع الفلاحون؟ اليس بقاؤهم كل بالقرب من قطعة ارضه هو الافضل؟..

طوع فلاح. لازالة الالتباس من ذهنه. فشرح مهمة الملا وهي تتلخص بطلب اجازة لجمعية فلاحية.. وان الجمعية الفلاحية تتولى تصريف شؤون الفلاحين وبعبارة اوضح قيادتهم...

ردها ابو البينة بصوت مهموس "غيادة"!؟ ثم حاور نفسه متشككاً: القيادة؟ لقد تذكرت اقوال الملا.. وصدى كلماته لايزال في اذني-يوم "صوت" على الفلاحين في مجلس فاتحة خلف: من منكم يختار بيت مهلهل ليكونوا "شيوخاً" ويملكون الاراضي؟ وما هو ياخذ بصمات اصابعهم.. مقرين باختياره قائداً "غياده" وربما اقرار بملكيتة للارض!! والحكومة شاهد على التوقيع..

انها عبودية من نوع جديد. بصمتم اصابعكم ايها الغنم! ولا تعرفون النتائج؟ مثل الغنم تماماً.. "تععب" لها فتسير وراك! مرة اخرى يقف الله بجانبني.. وتخدمني الصدف على نحو رائع.. فلو جنته بالامس لطلب مني التوقيع على صك العبودية. واحرج موقفي.. فالرفض يعني الصدام- وهو

حامل مفاتيح الجنة! والتوقيع معناه الاقرار بالعبودية والحكومة شاهد على ما اقول.. فلا انكار ولا تمرد مدى الحياة.. وربما كتب اشياء تخوله حق التصرف بمقدرات اصحاب التواقيع.. مثلاً: اقر واعترف-انا الموقع على هذه العريضة بان لا ازوج بناتي الا بموافقة ملا نعمه ولا ازوج اولادي الا باخذ رأيه!!ومن يدري قد تكون المسألة على النحو الذي يصوره داود: هناك في دولتهم الشيوعية يخلع الواحد قبعته.. يعلقها على باب الدار ليعرف الزوج ان زوجته مشغولة مع صديقها!!

وهنا يعلق عوده الكبر"عگالة" على باب الخيمة فاعرف ان زوجتي مشغولة مع عوده الكبير!!"واي واي من هالمال حمل اجمال!"

رجع بخيبة. لم يخفف من شدتها الا شعوره بالنجاة من مصيدة العريضة.. عرج على بيت ابن اخيه "داود" ليستطلع اخبار الشيوخ والاصلاح الزراعي.. واين وصلت مساعيه بشان" هورة الصالحية" وان يكن القنوط من نتيجة مسعى داود هو الاقرب: ولكن لابس فلا تابع المسألة على مذهب القائل: " اطرد الخيال بلجي يطيح منة ارچاب".

لسعه وجود مطشر. مع زوجة ابن اخيه. في باحة الحوش-يهم بحمل كيس مليء بالحنطة. سألها بعد ذهاب مطشر: اما كان الافضل قيام زوجك بنقل الحنطة خارج الحوش؟ اجابته بحدة: لقد بكر زوجي بالذهاب الى قرية الشيوخ.. وكان لابد من ارسال الحنطة الى الطاحونة -لان مطشر اخذ الحبوب اللازمة لاهله.. وتطوع مشكوراً باخذ الكيس معه..

ترأى له ان حدة نبراتها. وعدم الاحتراف به يدل على صلابة موقفها.. لو كانت في موقف ضعيف لخفضت له جناح الذل. فاستعاذ بالله من

الشیطان الذی وسوس له بالشکوک:

ومع ذلك لن اتزحزح عن مبدئي: "المرأة شريحة لحم والرجال بزازين!"
وهذا "البزون" الاسمر- ذو العيون الثعلبية الماكرة- ابن حمزة- لابد ان يكون
اشر بزازين الدنيا قاطبة.. وان هي الا شريحة من "اليرة" خروف "ودع
البزون شحمة". لن اتزحزح قيد شعرة عن مبدئي "والف استغفر الله
ياربي":

- مامش عدكم بطل فارغ؟

التقطت زجاجة فارغة. من احدى زوايا الجمالي. وضعتها بين يديه. قائلة
بخشونة:

-هاك!

لم تعرض عليه تخدير الشاي. او تقديم شيء من الطعام. فادرك ان ذلك
جزء لسوءاله الجاف. الخالي من الذوق.

وضع ابهامه في عنق الزجاجة. ثم حمل عصاه باليد الاخرى. وقال لها
قبل مغادرة باب الحوش:

- كليلة يمر عليك باجر.

لم يسمع جوابها. تذكر انه رأى حمزه في ديوانية ملا نعمه. فلم يعرج
على ربعته. اتخذ سبيلا ملتويا الى بيته -ليتفقد المرعى. توقف برهة ليشمل
غنم "جوده" بنظرة فاحصة: اضحت "بزكطة عجل" غنم حمزه.. صدق من
قال "يا من تعب يامن شكى يامن على الحاضر لگى..". كان (الله يرحمه)
يضع الجدي الوليد بين ثوبه وجلده في ليالي كانون.. واستكثر على نفسه
تدخين السكاير فاحتفظ ب"السبيل" حتى بعد توفر ورق اللف "يكد ابو كلاش

وياكل ابو چزمة! وكانت لرائحة ثيابه (اللّه يرحمه) عفونة مراح الغنم.
لئن رست السفينة على شاطي الامان وسارت الامور كما اريد. توجب
عليّ - رفع مستوى العيش في بيتي- بئس عاقبة البخل..
وليش عبثا قولهم: "مال المدير ياكله كشخان".

* * *

هيا لنفسه جميع الاحتمالات. وهو في الطريق الى بيت ملا نعمه.
صبيحة اليوم التالي: اذا طالبني بالتوقيع على عريضته المشؤومة..
اضحك.. ثم اجيب: ما وضعت ابهامي على ورقه البتة.. فتحت عيني على
هذه الدنيا وما كنت بحاجة للاستدانة من احد. ولم اطلب سلفة زراعية من
الشيوخ.. وحلفت بالعباس ابو فاضل: لن اضع ابهامي على ورقة مادمت
حيا. وفي جميع الاحوال- سواء وقعت ام لم اوقع- فلايشغلکم امری. انا
معكم حتى الموت.

وجد الديوانية خالية. وليس في القرية. على كثرة بيوتها. رجل واحد.
اجابه سعد بن ملا نعمه: ذهبوا جميعا الى قرية مويحة.. اختيرت لموقعها
الوسط بين القرى المتناثرة.. ليعقد اجتماع فلاحي مهم..

ابتسم (صالح ابو البيئه) في وجه الصبي. واستدار على عقبه محاورا
نفسه "ابن الحاجج اينب" عرف الاجتماع وعرف اهميته.. ابن الزعيم! بلا
بوش دنيا.. ماذا سيقولون في اجتماعهم المهم؟ وما الذي يفعلونه؟ "كل
واحد يحوز النار لكرسته" ولكل منهم غايته وقد مهد السبيل اليها.. حتى
عييد المنتاز: "لاتضحك يا صالح.. اذ لم تصعد على الاكتاف داستك
الاقدام.. ولن تجد من يترحم عليك.. هكذا شيدت الدنيا منذ اول لبنة

وضعت في اساسها ..

لاتساورك الشكوك في نواياي ولكنني مضطر للصعود على الاكتاف..
وسوف ترى قفرتي.. وان هي الا اسابيع وتسمع (المناضل) عبيد المنتاز-
لاتضحك لاتضحك يا صالح- الم احدثهم قبل سبعة عشر عاما بما سمعت
من السجناء السياسيين عن ضرورة توزيع الاراضي على الفلاحين؟ حتى
ملا نعمه لم يكن-عهد ذاك -يعرف اسم الاصلاح الزراعي.. لقد كنت
السياق لنشر مبادئ السجناء السياسيين والمبشر الاول بسقوط دولة
الاقطاع..

ويغمز الملعون. بطرف جفن عين واحدة ويحرك ارنبة انفه.. ويلوي بوزه
جانبا.. انه يعرف مايريد وقد شرع بتمهيد السبيل لغايته.. أما انت
يا صالح يا اثول يا ابن الغبرا. هل تملك خبث عبيد ومكره؟ او لباقة ملا
نعمه ومعرفته؟ وهل وسم ظهرك خيزران الشيوخ مثل عودة الكبر ومحمود
شنين؟ فكيف تطمع بلقب "مناضل"؟!

ضحك صالح سخرية من نفسه. حتى قهقهه عاليا. وتلفت الى وراء.
خشية ان يكون احد على الطريق سمع ضحكته. اطمأن الى خلو المكان.
فرفع صوته قائلا:

- المناضل صالح الحميد!!

خلهم ايگولون ابو البينه.. هم ميخالف!

المناضل صالح ابو البينه!!

وعاود الضحك ثانية.

* * *

تعثر في مشيئة. حين اقترب من الحشد الفلاحي الضخم. الذي شكل نصف دائرة بجوار ديوانية عبيد المنتاز..

رأى عودة الكبر يراوح بين يديه صعودا وهبوطا. وبين كفيه. قبضا وبسطا. وحذر من شماتة الاقطاعيين واعوانهم. اذا لم يتحمل الفلاحون مسؤولياتهم. وينهضوا بعبء تطهير الجداول:

- لو فسلنا يگولون: الفلاليح بغير خيزران الشيوخ ما يشتغلون...

(هذا هو بيت القصيد يا ابن كبر انك خائف من الفشل وقد يتسبب في رجوع الخيزران.. ولن تتخلص من اثار الخيزرانة اياها.. سيظل لسعها يؤرقك طول العمر.. ويطلع سلوكك وتصرفاتك..)

وانبرى عبيد المنتاز- ليحكي على الربابة مجدا زائفا. لم يكتف بضميره شاهدا عليه. بل تجرأ واقحم اسم ملا نعمه:

- وهذا الملا شاهد.. انشدوه گبل سبعطش سنه سولف السالفه....

(يا لك من ذئب اجرد.. ماكر وجريء.. تتحدث وكأن الكلمات تصدر عن الاعماق..عجبي لا ينقضي من هؤلاء الناس- صنف عبيد- بل احسدھم على قدراتهم للتلون...)

وتسلم زمام الحديث ملا نعمه. فلم ينفعل مثل عوده الكبر. ولم يتغن بأمجاده مثل عبيد المنتاز. تناول الموضوع بلا مقدمات: لاحظنا بأسف شديد.. ان الكثيرين غير متحمسين لتطهير الجداول والانهر الفرعية.. وفي رأس كل واحد منهم فكرة موعدهاها: ما دمت غير متعاقد مع الاصلاح الزراعي- حتى الان- فما يدريني اين تقع قطعة الارض..

واصارحكم القول.. اذا سرنا بهذه الروح الفردية حققنا نبوة الاعداء

القائلة: ان الفلاح لا يعمل بغير عصا الاقطاعي..

تعاقب الفلاحين في ما بعد على توجيه الاسئلة للملا.. راه لأول مرة يغضب على تلك الصورة.. ويرد بقسوة على فلاح اقترح توزيع الارض وفق اسس عشائرية: مثلا هورة الصالحية تخصص لعشيرة بعينها.. ومويلة لخذ بمفرده.. وهكذا.. تجنبنا لاحتكاك محتمل بين افراد العشائر المختلفة...

اجابه الملا بحزم تجاوز الحد.. واسهب في رده: لا فرق بين فلاح وفلاح.. ينبغي تأسيس العلاقات في الريف على واقع اجتماعي- طبقي.. وليس على التقسيمات العشائرية. ان حكاية العشائرية من مخلفات الاقطاع وكانت الركيزة الاساسية للسيطرة الاستعمارية لا نريد لفاهيم الاقطاع وقيمه ان تظل سائدة بيننا.. ان الفلاحين.. ان العشائرية.. ان الاقطاع.. ان....

ضاق صالح ابو البينه بمحاضرة الملا. وتشاعم من اقحام اسم "الصالحية" : لم يجد الاثول "ابن زغير" اسما غير الصالحيه مثلا على اقتراحه.. وتلقفه ملا نعمه فصيره تكأة لمحاضرته المملة.. لقد اصبح اسمها على كل لسان وربما استصعب الملا طلبي بعد الذي جرى "كلما تهفت ايهيضا الاعيور!! تف على ذاك النصيب".

وهاهو يعتبر العشائرية من صنع الاقطاع.. ومن يدري فقد يصبح الدين عنده من مخلفات الرحعية.. ثم يجيء دور الملكية الخاصة فيعتبرها ركيزة الاستعمار.. وهكذا.. حتى يصلون الى العائلة فيقولون انها سند البرجوازية- تماما كما يقول عنهم داود- يحاربون العائلة وشرف العائلة-

في دولتهم هناك...

انهم لا يتسترون على نواياهم بما فيه الكفاية. هذا اول هجوم على العشائر والعشائرية.. وكأن الملا (الله يعلي سعوده!!) هبط الارض على ظهر حصان طائر حمله من السماء السابعة- ولا صلة له بالعشائر. وكأنه لا يستمد قوته من العشيرة ومن كونه رئيس فخذ كبير له وزنه واحترامه!- اسمع يا صالح وابلع.. واستفد من حكمة المرحوم ابن مهلهل "شيگول" صاحب گول يس" حتى تضع اوراق الصالحيه في جيبك وحينذاك "اعط" للملا اذا تكلم!.

لقد ضاع يوم اخر. فليس هذا الوقت المناسب لمحادثة الزعيم ملا نعمه! غدا املاً جيبي بالدنانير.. الوح له بحزمة من "امهات الخمسه" ولنسمع ما يقول.. اهي من مخلفات الاستعمار والاقطاع؟ ام من تركة الرجعية العميلة؟! ليتني اصارحه- لحظة يدس الدنانير في جيبه: هذه من خيرات الاقطاع والرجعية يا حضرة الملا!! وسوف اخطو خطوتي الثانية.. فأشترى بحزمة دنانير اخرى لقب "المناضل" صالح ابو البيه!!

* * *

انسل من بيته مع اشراقه الشمس. يراوده احساس بأن الوقت يفلت من بين اصابعه.. والايام تسبقه. محملة بكل ماهو جديد وغريب: ولا يدركها الا -"فتاح الفال" وويل لمن ترك امرا معلقا.. عرضة لتقلبات الايام.. ومشاكل ملا نعمه في تزايد مع الساعات والدقائق وتغدو مواجهته - يوما بعد اخر- اصعب من مواجهة ابن مهلهل (في ايام عزه) ..

طالعته خيبة الامل مجسمة في حشد الفلاحين المبكر. يتقدمه ملا نعمه

بعود زمح طويل. يتحرك صعودا وهبوطا. قي تناسق مع خطواته الواسعة السريعة.. وتومض مساحي الفلاحين تحت اشعة الشمس مثل النجوم وراء السحب المتناثرة: لم يكن ابن مهلهل (المسكين!) يمشي هكذا.. وهاهي الارض تستغيث من مشية الملا.. ولكن يا صالح يا اثول يا ابن الغبرا اما يصبر على المر ما يضوك الحلو ويتعين علي الانتظام من هؤلاء الذين يلهثون خلفه. ما اشبهني بنعجة ضلت قطيعها فدرجها القدر بين اغنام الضاعنين. ولا مفر من تجرع كبريائه واحتمال ثرثرة بطانته عن الاقطاع والاستعمار.

شرح الملا بتقسيم نهر العلوه. بواسطة عود الرمح. ومن خلفه فرحان بن سويلم يضع العلامات بين "طرح" واخر. وينزل الفلاحون واحدا اثر واحد لتسلم حصصهم: كأنهم بطيخ من "جوالك" مثقوب يتساقطون في نهر العلوه.. وفي النهاية لم تبق في "الجوالك" بطيخة واحدة.. وهاهو الملا بمفرده..

اقترب منه صالح ابو البينه. وحياه مبتسما:

- الله يساعذك.. تعبت اليوم.. اهواي تعبت..
- لا. وانت طيب ماكو تعب.
- صار لي خمس تيام ارد اشوفك.. وكل يوم الكاك مشغول.
- تفضل.. تفضل سولف.

الملا يحسن الاصغاء جيدا. لدرجة شجعت صالح على استنفاذ المقدمة بسهولة. اقترب من جوهر المسألة. لم تعد تفصله غير خطوات....
لكن مشاكل العمل مثل جو اذار وايار. لا احد يدري متى تلبس السماء

لامة حربها.. ويدوي الرعد وتهب العاصفة.. ولا متى يتساقط " الحلوب"
ويدمر الزرع- كأنك لم تحرث ولم تسق-.

لقد هبت احدى عواصف العمل. على غير انتظار. وارتفعت الاصوات:
بشائر الشتائم تلوح في الاق..

غمرت صالح ابو البيه نشوة مفاجئة. مضحيا بفرصة انفراده مع الملا.
وراح يردد في سره شامتا:

"الفلاح اخو الفلاح من حدر!!"

تصايح الفلاحون. حتى ضاع بينهم صوت الملا. فتمتم صالح بسرور:

- هسة يصير طك المساحي لاخوة موزة!!

تمسك كل فريق برأيه. الاول يصر: ان توزع "الطروح" على عدد افراد
العائلة. القادرين على العمل. وحجته ان هؤلاء سوف يتعاقدون على قطع
ارض. فيما يصر الثاني على استمرار الوضع الراهن: كل بيت يتكلف
حصة واحدة من تطهير الجدول، مهما بلغ افراد العائلة..

ثار ملا نعمه.. وندد بأسلوب الفريقين في مناقشة القضية.. ان
القضية...

حاوره صالح في سره: القضية.. يا ملا نعمه هي احتجاج قضيتي وراء
غبار معركة سخيفة.. وعزائي الوحيد بطلان احدى اياتك "الفلاح اخو
الفلاح" او قل انهم اضافوا عليها عبارة "من تحت!" فتشكلت هكذا "
الفلاح اخو الفلاح من تحت!" واكتشفت بتجربتك انك " تغني بالكوز" وهذا
شيء حسن يحملك على التواضع. وتستقبلني غداً غداً بكبرياء اقل.

الفصل السابع

اعتلى صالح ابو البيه مترب الجدول. فنفذت نسمة صباحية باردة من زيق ثوبه. اهتز لها جسمه وجعلته يتذكر المعطف الذي اعتزم شراءه: شغلتنى "الصالحية" عن المعطف وعن سترة مهيدي وحذاء جنيدي وثياب النساء..

شمل الطريق وقرية "العلوة" بنظرة فاحصة: لم يغادرو ابوتهم حتى الان.. وقد ارتفعت الشمس مقدار- ضيق عينيه وحدق في قرصها ليقيس المسافة- اكثر من رمحين او ثلاثة.. ولازال الزعيم الجديد ملا نعمة (الله يعلي سعوده) يغط في نوم عميق ولابد انهم في انتظاره.. كما كانوا ينتظرون ابن مهلهل" نوم المدلل ضحاوي" اذا خرجوا من بيوتهم الان متى يصلون ومتى ينجزون عملهم؟ لست معنيا بامرهم.. كل ما ابغيه ان أتشرف بلقاء الزعيم ملا نعمة ويمنحني شيئا من وقته الثمين على انفراد لاربه حزمة الدنانير..

تحسس نقوده من ظاهر جيب السترة. ثم ضغطها على صدره بالمرفق. وضع كفه فوق حاجبيه. اتقاء اشعة الشمس. وصوب النظر الى قرية العلوة: ماذا هناك؟ (اليوم يومك ياعلي) بريق يرتفع؟ (اصبنا واصبح الملك لله) وخيل تتكرس؟ (يامانع الردى).

ماذا ارى بريق (الناضل!) عبيد المنتاز يخفق في العلى.. واهل الصالحية يهرعون.. الى اين؟ ايكون الملعون داود صادقا في قوله: ان هي الأ ايام ويحسم الصراع وينتهي كل مستحدث لتعود الامور سيرتها الاولى؟ هل يحدث صدام دموي؟

لئن استوثق الشيخ من سقوط حكومة الملا.. سيعتلي قصره ويحصدهم

بنار الرشاشات الكافرة..

يا لهم من مجانين.. يتراكضون.. ويمتلئ الأفق بالغبار.

هرول عائدا.. وجد اهل بيته يتابعون حركة الجموع الزاحفة نحو قصر

الشيوخ. وقد استبد بهم الذعر..

تنشق الهواء وزفره مرارا.. حتى اذا امكنه الكلام امر ولده مهيدي

بارتباك ملحوظ:

- اركب فرسك. روح شوف الحسبة شنهي ما شنهي. من بعيد اريدك

سريع الردة. ولا تحط روحك بالوصطه. اتمهت؟

- اتمهت.

- اتمهت زين؟

- اتمهت.

اعتلى ظهر الفرس. بلا سرج. جلدها بسوط اللجام على الجانبين..

فانطلقت عدوا سريعا.. وارتفع خلفها غبار كثيف اختلط فيما بعد بالغبار

الشامل الذي يلف البترا والسدور والصالحية ومويحة..

خطا على مهل. كأنه يقتفي اثار ولده. بلغ الطرف الغربي من مراح

الغنم. ثم رجع. حاول ان يلف سيكاره فلم تطاوعه اصابعه.

انصرف لمحاورة نفسه:

لسواد عيون ملا نعمة وابن كبر تهرق دماء العشيرة؟ اذا ما تغلبوا على

الشيخ في معركة هدموا قصره وقلبوا عاليه سافله.. بعد ان يقطعوه

اشلاء.. او يسطلوه مثل نوري السعيد.. لقد قالها ملا نعمه صراحة

(اسهمت في سحل الوصي ونوري السعيد وما يدريني بالذي يخبئه القدر

لهذه اليد.. أي طاغية اخر يتحتم عليها سحله.. وساعتها يرجعون من
القصر مثل ذئاب جائعة لنهب الغنم.. اما اذا انتصر عليهم وشتت شملهم
سوف يحاسبني حساب (منكر ونكير) ومع ذلك فهذا اهون الشرين.
دخل ربعته. خطر فوق زجاجاته الدفينة. ركل مواقعها باقدامه...
سمع اطلاقات نارية.. فصرخ بصوت مكتوم: "علكت والعباس.. والستار
الله.."

سيطر الرعب على النساء. تكاثر اطلاق الرصاص في الهواء. زمجر
صالح بوحشية:

- ابن الثولة..نسه وصيتي. كتله رد ابساع.

تناهى الى اسماعهم صوت الرشاش مرعبا: تت تت تت تت تتنتنتت
تنتنتنتت..

صرخت زوجته:

- يمة مهيدي.. اشوداك بهاليوم الاكثر..

افتضح رعبه حين جاهر بالقول:

- اويلاخ يمهيدي ضعنا

* * *

كان دواد يتابع حركة اهل "العلوة" من كوة في بيته، رأى الخيل تخب
والراجلة تسابقها.. وانحرف فرحان بن سويلم عن "الجمع" ووجهته بيت
حمزه.. ولما استقبلته الكلاب مستشرسة صاح باعلى صوته:

- حمزه.. حمود..

تعالوا.. تعالوا بالعجل.

انطلق حمود بن شنين مسرعا ليلحق الجميع. توقف فجأة.. والتفت الى
اخيه قائلا:

-ولك محمد. جيب لك فاس فاله. ريد مسحاه.. هاليوگع بيدك.. والحگني
بالعجل..

ايقن داود انها معركة بين الشيوخ وبين الفلاحين. فلم يكتفم مخاوفه بل
راح يعبر عنها بتوجيه اللوم للفلاحين.. واسداء المواعظ للشيوخ..
انتفضت زوجته غاضبة. وتحدرت بصوت راعد تعيره بالقعود:

- جاعد وي النسوان ليش؟

البس تفگتك وامش.. شوف الحسبة شنهي ما شنهي..

انته زلة حالك حال الزلم..

بلع ريكه بصعوبة وندب حظة:

لقد حرضها بختي الضعيف على اتخاذ هذا الموقف فوضعتني امام
الامر الواقع.. ولا مفر من الذهاب ولكن... يتعين علي ان اشتط جانبا
والوذ بجدول البترا ريشما تنجلي المعركة وتتضح النتائج. كاد ان يسقط
مرتين قبل ان يستقر فوق سرج مهرته. شيعته بنظرة احتقار وكراهية .
ودعت له بالشر:

- هلبت تكسر رگبتك. وين العباس ابو فاضل.. خروفك امحنا....

وحين سمع مطشر بن حمزه ازيز الرصاص في الهواء استنفزت
مشاعره، وعندها قرر مخالفة امر ابيه بالبقاء، فتقلد مسدسه واعتزم
اللاحاق بالجمع.

ساد الذعر في بيت حمزه -وهم يصغون لزمجرة الرشاش- صرخت

زوجة حمزه:

- ليش هيجي يحمزه. انت العاجل الما تهزك الهزاهز شنهو الطفر
بهاليوم الاكشر؟

واطمت زوجة حمود على صدرها واعولت:

- ويلي ويلي شنهو الودأ يحمود..

- وين اولي.. يتيمه وتايهه..

وصاحت سكونه بوجه مطشر. وقد لحظت توثبه للانطلاق:

- وين؟ وين رايح؟ ابوك شوصاك؟ ما اخليك تتحرك لو تضربني چيلة..

تنهدت زينة وهي تخطر في باحة الحوش. رمقت السماء بخشوع ودعت:

اريدها رصاصه طائشة تكسر باب سجني. لافرق ان كانت من رشاش
ضاري او بندقية فلاح.

خفضت رأسها ثم توجهت نحو الغرب ودعت: "يالعباس ابو فاضل

خروفك امحنا.."

* * *

بلغ حماس الفلاحين ذروته. فحملوا رئيس لجنة الاستيلاء واعضاءها

على الاكتاف. ادخلوهم قصر بيت مهلهل في موكب مؤثر.

لم يجد غالبية الفلاحين "افنديا" يحملونه. فاحاطوا عريف الشرطة

وسائق السيارة المسلحة ورفعوهما على الاكتاف كذلك.

صاح الشرطي السائق:

- وينهم الشيوخ؟ صاروا غنم!

ضج المكان بضحك الفلاحين وصخبهم.. حتى رددت اصداه جنبات

القصر.. اجابه حمود بن شنين بصوت اجش:

- أي واللّه لاعاب حلگك.. صاروا غنم!!

استمرأ الشرطي دعابته. مستمتعا بصعوده اكتاف الفلاحين. فرددها

بصوت مرتفع. مع اشارت تهديد بذراعه:

- وينهم الغنم؟ وينهم؟!

تناغمت اصوات الفلاحين معايبته:

- الغنم.. وينهم..

- وين الغنم؟

- وين الغنم؟

- وين الغنم؟

كانت الاصوات مميزة وواضحة تتناهى الى اذن مهيدي بن صالح ابو

البينه الذي يراقب بعينه واذنيه:

مأمور المركز ف " نفسه " نجمته تلمع تحت ضوء الشمس. محمولاً على

اكتاف الفلاحين.. يرددها واضحة لا لبس ولا غموض فيها: اريد الغنم اريد

غنم الشيوخ.. فما الذي انتظره بعد ذلك؟ اعتلى ظهر الفرس. الهب

مؤخرتها بالسوط.. فجاءت تسابق الريح. لا اسبق منها الا رائحة الشر.

تشممها صالح ابو البينه على البعد. ولما يزل مهيدي في منتصف " هورة

البترا " فقال لاهل بيته:

- گلبى لسبني.. الولد عنده خبر اكشر!!

هرعوا لاستقباله.. فصاح بهم منذراً:

- حملوا.. شيلوا.. طيحوا بيتكم.. عوينة موتاكم.. اجوكم!!

ثم قفز من ظهر الفرس. وتمدد على الارض... متعبا لاهثا.. بدا يتكلم
بفم مفتوح على مصراعيه: لجنة الاستيلاء استولت على القصر وما فيه..
وعلى المضخات والجرارات والمحاريث.. والسيارات.. والان تركتهم يبحثون
عن الغنم. ومأمور المركز "ف نفسه" يصيح بلجاجة: "الغنم.. الغنم.. وبين
الغنم.. هسة اريد الغنم" اما اطلاق الرصاص فهو تعبير عن فرحة
الفلاحين بمجيء الاستيلاء.. وقد شاركهم السيارة المسلحة باطلاق صليتي
رشاش.

كانوا ينظرون بعضهم مشدوهين.. فصرخ مهيدي فجأة:

-عوينة موتاكم.. لهسة ما طيحتوا البيوت!؟

لحظتئذ استفاق صالح من ذهوله بدأ يصدر اوامره الحازمة

بالرحيل..الى "هور المصندك"

لم تفقده الصدمة دقة ملاحظاته.. قدر ان حوالي نصف "تغار" من الشعير
سيبقى بلا راحة تحمله. فأمر النساء بصب الشعير على الارض. خطوطا
مستقيمة.. وامر ولديه باحضار الغنم. موضحا ان الرحلة قد تطول.. وقد لا
نتوقف حتى فجر غد.

ازدحم فناء البيت بنحو ثلاثين حمارا. وزعت على ظهورها امتعة
البيت..واوعية الحبوب.. والخيام. اعلن بينهم تفاصيل المسيرة بلهجة القائد
المجرب:

- جنيدي البس تفكتك. واكسر بيها مشط. وتح للغنم.

مهيدي اطني تفكتك واليرغ.. وامش وراء الغنم.

وانتن هدية وطشاره ساندن الظعن مناه ومناه..

وانتي ام مهيدي امشي ورا الظعن. وانة امشي بالنص. بين الغنم
والظعينة.

قبل الانطلاق بوقت قصير. امر زوجته بان تمسك لجام الفرس. ريثما
يحكم بطان الخرج المليء بالزجاجات. وامر جنيدي بلهجة امر حازمة:
- اسمع. لو صار علي امر ووكتت من ظهر الفرس لا اتخليها تمشي
خطوة وحده. طكها جيلة واكتلها بمجانها.. حتى لاتشرد بالخرج.
ثم واصل الحديث مع نفسه:

"فلوسك يا احميد يابوية" لن افرط بهن ولن استهين بجهدك الاسطوري
في جمعهن على مر السنين والايام.. لن انساك وانت تجلو الربيه وتتغزل
"بالليرة" قبل ان تدفنها. سوف ازكي ثقتك وابرر اختيارك لي دون اخي
سلمان.. ساجعلك قريير العين وانت في قبرك.. "فلوسك يا احميد يابوية" في
يد امينة..

كان موقعه في الظعن. موضع القلب من الجسم. امامه الغنم وخلفه
الحمير. والكلاب لا تستقر على حال: مرة تستبق الظعن ومرة تتخلف
يشاغلها ارنب او ثعلب. تطارده وبين انيابها يكمن الموت.. اشار بأصبعه
قبل مغرب الشمس بدقائق:

-هذيچ المنارة بعد ساعة ونوصل الدجيلة..

كان يتعجل حلول الظلام بالثواني: لو اسدل الليل ستاره وغيبنا عن
الابصار.. لقطعنا الشوط الاكبر في رحلة السلامة.

احسس بعض الطمأنينة. مع عتمة المساء. ولكن القمر فاجأه بعد الغروب
مباشرة. وهو كامل التكوين محكم الاستدارة. استاء لطلوعه العاجل. وكأنه

يتسلم نوبة الحراسة من يد الشمس. ولما تمض على مغربها سوى دقائق..
شعر لأول مرة في حياته بعدم الطمأنينة الى القمر المتكامل.. وراح
يخاطب نفسه: يالها من ليلة مقمرة فظيعة.. هي بالنهار اشبه.. والرؤية تمتد
فيها لمسافة غيرقليلة..

تملى قرصه المستدير.. وصورة الارنب التي تغطي وجهه.. فخاطبه
حانقا: رأيتك هكذا.. منذ كنت طفلا.. يا ايها الاعور الافاق.. لا احد يدري
ماذا تريد وبماذا تستمتع ايها الاعور الافاق!!؟
ليس هذا هو الوقت المناسب لتبتلعه الحوت؟

شهيتها الليلة مثل شهيتي للطعام! الف استغفر الله ياربي.
كانت اخر مرة.. لا اتذكرها بالضبط واضيء الافق بالمشاعل.. ودق
الاطفال على الاواني مرددين" يا حوتة البلاعة هدي كمرنا بساعة.."
وقالوا ان كسوفه يقترن دائما بانتشار اوبئة المواشي. لكن لم الحظ
شيئا من هذا-والف استخفرالله ياربي.. لا تحسبها كفر..
حين بلغوا نهر الدجيلة القديم امر ولديه بالتوقف عند مكان رحب فسيح
في الشاطيء. لانتشغله سوى شجرة سدر هرمة تغضن جذعها وتعمقت
اخاديه.

نصح ولديه بعدم الجلوس. وحذرهما من الغفلة. فقد خبر المكان جيدا.
وعرف انه مليء بالضباع والذئاب والغرير.. رءاها رأي العين.. وثمة
حيوانات اخرى مجهولة سمع عنها الكثير.
ساد صمت لايقطعه الا حفيف اجنحة الطيور تخترق الفضاء.. او نباح
كلب استغرب المكان. او نهيق حمار-بلا مناسبة

كان مجلس صالح بين زوجته وابنته. متخذاً من "الخرج" مقعداً. زيادة في الحيلة والحذر. مسنداً بندقيته على ذراعه اليسرى. يساوره ندم غير مؤلم: لأول مرة يرون الثروة المخزونة على هذا النحو المفضوح..

لم يره احد من قبل كيف واين يخفي زجاجاته. ومتى يغير مدافنها. حين كانت الدنيا بخير.. والأمن ينشر جناحيه على الارض. يتسلل بهدوء فيقتلع الزجاجات في الوقت المناسب. ليدفنها عند مشارف الربعة او داخلها.. او في مكان بعيد. لم تكن ثمة قاعدة محددة لاختفاء ثروته. المهم ان لا يحس احد من اهل بيته: كيف واين ومتى اخفاها. بيد ان الزلزال لايمهل ولا يستأذن.. كما حدث هذا اليوم.. فاخرج كنزه سبع عشرة زجاجة.. جهازاً نهاراً امام عشرة عيون مفتوحة شرهة.

انكفاً على وجهه. حتى لامست لحيته وجه الارض. مستظلاً بعباءته كي لا ينفذ بصيص نور من سيكارتة.. ثم جاهد ليكتم نوبة سعال مفاجئة. لم يتخلص منها الا باطفاء بقية السيارة واستنشاق الهواء...

همس بصوت الخائف يسأل زوجته:

- نائمة؟

- لا. واعيه.

- وانتي يا هدية؟

- واعيه بويه.. واعيه

تململت بنت مهيدى. توطئة للبكاء. فنهر امها بزجرة مكتومة:

- سچتي المشلوعة.. انطيتها فردات تمر.

سألته زوجته همساً:

- تندل الدرب؟

عزف على اوتار حنجرته. شيئاً اراد به ضحكة ساخرة. واجابها:

- كون اشتر عيوني هم اندل الدرب.

اشيتبيل من الكاع؟ غابل هم اتشيب وينحني ظهرها!!

ثم ما لبث ان سأل نفسه بقلق:

- ولكن يا ابن الغبرا.. يا صالح يا اثول انسيت مشروع الدجيلة الذي عبث بالارض.. وامتدت "شاخاته" جنوبا وشمالا.. حتى تغيرت معالم الطريق؟ ومع ذلك.. لازلت اتذكر بعض "التلؤل" لو سرنا شرقا منحرفين قليلا الى الشمال نبلغ اطراف الهور مبكرين.. ثم نتوغل اكثر فاكثر.. وهناك يضيع صالح وغنم الشيوخ..

اعرف افراد يقتنون اكثر من غنمي وغنم الشيوخ مجتمعة..

سيكون اسمي منذ الغد "علي الكشاوي" ومهيدي اسمه.. اسمه

حسن.. وجنيدي اسمه حسين..

لازلت اتذكر ذلك المكان وطريقه الوعر. حتى ليصعب على الخيل اجتيازه بسهولة.. ومن هنا.. اتخذنا طريقنا اليه.. وكانت الدنيا تسير بانتظام حتى بدا المرحوم في مزاج رائق.. نهمني حين رأني اتبول تحت شجرة السدر هذه- هي نفسها ان لم تخدعني ذاكرتي- وقال لأمي:

انها شجرة مقدسة لا يجوز التبول تحتها.. وحرام كذلك اشعال النار في ظلها. او تكسير اغصانها.. وان الشئ الوحيد المسموح به للمسلم هو انتزاع ورقها بكمية محددة توضع في ماء غسل الاموات.. وقال لها يا سبحان الله- هي نفسها لم تتغير رأيتها شابا وها انا كهلا.. وكنت صبيا

ارعى الطليان بالقرب منها.. وكثيرون يؤكدون انها على حالها منذ عشرات السنين. انهلتها حكاية السدرة فتمنت: ليت لي عمر سدرة!!
ويومها ضحك المرحوم وسألها ماذا انت قائلة لو علمت ان اشجار السدر(هذه) التي تنتشر على شاطيء الدجيل المهجور هي من غرس اناس عاشوا في زمن الحجاج!؟

فأستوضحته: ايكون هو نفسه الذي يذكر اسمه- حين يمزح أحدنا مع علوي ويقول له "حجيج كطعمكم يا ساده!!" ؟ فرد بالايجاب و اشار ألى "المنارة" قائلا: انها بقايا باب سجن الحجاج- على حد رواية الشيخ حسون الروزخون- وكان يحشر فيه الالوف نساء ورجالا في العراق..لا يظلمهم سقف- ان صيفا او شتاء. ولا يسمح لهم السجانون بالاقتراب من الظل ساعة الظهيرة.. ايام تموز واب..

وشهقت المرحومة واعولت حين اخبرها بأن جريرة هؤلاء كونهم شيعة يحبون ال البيت.. ولا يتبرأون من علي بن ابي طالب...
ثم جاء مزاحه- انها ايام رائعة- فقال لها.. كان الحجاج يستمتع بمنظر دماء العلويين وهي تسيل على الارض لدرجة (خفض صوته وهمس لها بشيء...) فلطمت خدها.. وراح يضحك.. ويخالسها النظر.. وقد عرفت فيما بعد فحوى الرواية من زورخون اخر....
دنيا.. تغيرت.. واصبح العيش قاسيا..

منذ متى كان اخر عهدي بالضحك!!؟ حتى الجرأة اصبحت غاية لا تدرك مثل الفرح والضحك.. ولو تشجعت قليلا لبعث اكثر من مائتين.
ركبني الجبن واكتفيت ببيع مائة رأس من غنم الشيوخ..

وعرض جنيدي نفسه للملامة والتفريع: مغفل انا. ما في ذلك شك. وإلا كيف اقنعني بتأجيل الزواج؟ لو ادركونا الليلة او غدا واستولوا على الغنم كلها. لاصبح مصير زواجه معلقا على كتفه "بالخرج!" وما اصعب المهر في قلب زجاجة! كان بوسعي ان اثلّم "خزلة" من الغنم واضع البندقية على كتفي "واليلحك ياخذ الجوز!".. هدهدني بوعود خلاصة وتطامننت الى سرقة غنم الشيوخ.. فلم اخذ غير ثمانية عشر رأسا- اضحت في جيب عبيد المنتاز لا شاهد عليه الا ضميره!

وانصرف مهيدي الى احلامه بمشاريع المستقبل. في المدى القريب.. اما الحلم الاكبر.. ان يغضب ذات يوم ويقول: " تعال اخذ نصيفتك من الغنم". وكانت زوجة صالح حانقة عليه. بلغ تيرمها حدا كاد ان يدفعها الى معاتبته: مثلما تعامل الاطفال تعاملني سواء بسواء.. تخفي "نحرك" عن عيني شأنك مع البت الغريبة. زوجة مهيدي. وكأني لم ارافق جميعها دينار ديناراً؟

بخيل وسيء الظن وقاسي في معاملته للجميع..كثير الشكوك بالنساء.. من أي صنف عجيب هذا الرجل؟!

ودعت هدية على نفسها بالشر: شلل لهذه اليد الجبابة.. اما كان الواجب ان اضاعف العطاء لعلوي؟ ثمانية رؤوس فقط! شلل.. ليتني اعطيته ثمانين رأسا من غنم الشيوخ. لتكون نحرا في قادم الايام حين نفرد بيت الزوجية..

وركب الوسواس زوجة مهيدي: ها هي الثروة الطائلة تملأ الخرج حتى "قيطانه" لا يعرف مقدارها الا الله. واخذ يقرب جنيدي من شهرين "تعال يا

جنيدى.. روح يا جنيدى.. شتگول انت يا جنيدى.. وانچب انت يا مهيدى..
غشيم انت يا مهيدى". وقد يضع الخرج كله بين يدي جنيدى ويخرج زوجي
من الثروة صفر اليدين" ام التوم صارت لبيه" وامه تكرهنى الى حد الموت
وربما شجعت "الشايب" على جعل الثروة من نصيب جنيدى.. ولا يدري
الاثول بما يدور حوله.. يتعين عليّ ان انبهه الى ما يجري في هذا البيت.
وما هذه الثروة ملك لاحد الاخوين دون الاخر.. انها ارث مشترك بينهما
وينبغي الا تلمسه يد جنيدى قبل موت الشايب اسأل الله ان يعجل به.
تذاعبت الكلاب في عوائها. فتطير صالح من صوتها المشؤوم وعصف به
قلق مفاجيء.. ثم امر زوجته ان تطعم الكلاب شيئاً من التمر محذرا من
القائه تحت السدرة.

* * *

وجد نفسه في مواجهة ذكرى موت ابيه: صاح غافل "راشده" فلويت عنان
الفرس. وكرر الوصية "الجفن والكافور والسدر" ولكنني فقدت الكافور..
وضع غافل قبضة اوراق الكفن في طرف الكفن ثم غمسها بالماء وراح
يعصر الاوراق في القدر حتى تشكلت رغوة صغيرة على وجه الماء....
وتذكرت حكاية المرحوم عن السدرة.. وان عمرها يقارب الالف سنة.. لو
عاش المرء الف سنة مثل هذه السدرة.. فلا بد له في النهاية قبضة اوراق
سدر تعتصر في ماء غسله.. يالضخامة الاسرار الكامنة بين زوايا جذعها
المنخور.. كم من الاحداث شهدت.. وكم طريد مثلي استظل بالقرب منها؟!..
وعلى طول الف سنة تنتصب شاهدا على الايدي التي امتدت لتأخذ اوراق
السدر اللازم لتغسيل الاموات..؟

اشاح بوجهه. وضع كفه على صفحة خده المقابلة للصدر. خيل اليه ان
اشواكها الحادة توشك ان تنغرز في جفنيه ووجنتيه.
عدل مجلسه. ادار ظهره لشجرة الصدر. رفع صوته بلا وعي وقال:
- اشها لسوالف الي اتضيج الخلك! مدري امنين ما امنين تلممت..
فوك درد اللّهُ ضربني بميچنه!

مناسب:

".. اهتزت الارض تحت اقدام الفلاحين وهم يهزجون استبشارا بمقدم لجنة الاستيلاء.." هذا مستهل رائع. انقله حرفيا.." ونحرت الذبائح تحت اقدام اعضاء اللجنة.." عض شفته بقسوة. وقال ندما ما كان ينقص احتفالنا غير نحر الذبائح..
وكان بوسعنا ان "نقترض!!" ذبيحتين او ثلاث من غنم الشيوخ!!..

الفصل الثامن

تراءى ملا نعمه في خطواته الواسعه المتسارعه. وكأنه مع سباق مع عود
"قاله" طويل يقيس به حصه كل فلاح من جدول العلوه. ويتحرك العود من
اسفل الى اعلى ويهبط ثانياً دون ان يترك أي من طرفيه اثراً في قاع
الجدول: مثل منقار حجلة يلتقط حب قمح تسلسل من وعاء مثقوب..
و"مسحاة" فرحان بن سويلم "تنكش" خلفه اهله وانصاف دوائر. في حركة
تماثل قائمة حصان معافى. يعدو متمهلاً فوق منبسط رخو. ويتخذ كل
فلاح موقعه. قبل مناداته بالاسم. فيغرز مسحاته في قلب الجدول. متعجلاً
انجاز (طرحه) قبل سواه.

عاب ملا نعمه على نفسه تقصيرها..وصمها بالتحلل من عهد قطعه على
نفسه مختاراً: قلت لهم اكتب عن كل ما يحدث في المنطقة اول بأول. فأني
خبر أكثر اهمية من اول عملية استيلاء على اللواء؟ لقد صعد المد الثوري
بين الفلاحين.. كان اكثرهم غير مصدق بأن مقاطعة بيت مهلهل تستولي
عليها الحكومة. وغدا توزعها بين الفلاحين. ويوم يرى الفلاح قطعة ارضه
لن تزحزحه ثورة الردة.. يستبسل في الدفاع عن الجمهورية حتماً.. ولكن..
صاح من خلفه فرحان بن سويلم:

- هاي وين ابو سعد؟ خلصت الطروح المن تذرع بعدا؟

وقف حيث نبهه فرحان. القى عود الفالة جانبا.

جلس في مواجهة الشمس يسترد قواه: اكتبه اليوم وابعثه غدا.. استعين
على صياغته ببعض الاخبار المنشورة.. ولكن.. ثلاثة ايام لم تصلني
الجريدة. ما يدريني ان كانت تأتي بانتظام مع سائق الباص؟ شغلت عنها
باجتماع مويحة ومجيء اللجنة.. وها ان تطهير الجدول يستحوذ على

وقتي كله. اعنتي بصياغته لاجعل منه ريبورتاجا..

شرع ينسق الخبر في ذهنه: الاصلاح الزراعي جوهر الثورة الـ.. ولكن مالذي عناه بالتشديد. على ان الثورة الوطنية تختلف تماما عن الثورة الاجتماعية- الاصلاح الزراعي جوهر الثورة الوطنية- الاجتماعية؟ لم آخذ على نفسي شق طريق غير مطروق؟ من المؤكد ان الجريدة مليئة بأخبار مماثلة- فهذه ايام الاصلاح الزراعي- ومن تلك الاخبار اصوغ خبري.

مد نظره مع جدول العلوه شرقا. حتى نهاية المرتفع الذي يطوق هورة البترا. ثم تحول ناحية الغرب.. فطن الى خلو المكان من خيم صالح ابو البيه: لا بد انه رحل الامس او الامس الاول بعد حديثنا الذي انقطع فجأة.. لعله اختار منزلا في الصالحية ليثبت وجوده بين فلاحها. ويجعل من ذلك سببا للمطالبة بقطعة ارض.. واذن فالدار لم يطرقها احد بعد.. والقهوة بحاجة الى المزيد من الوقود.

توجه الى الدار الخالية. وجد مراح الغنم. كما قدر. مفروشا بـ"البعرور" .. لم تعبت به يد امرأة من اهل القرية.

جمع حزمة شوك. ثم نسقها. احكم لثامه. خلع عباءته. شرع يكنس بحماس.. جمع اربعة اكوام.. ادركه كثير من الفلاحين الذين انجزوا عملهم. فنتطوعوا لمساعدته. كان يريد بفرح ظاهر:

- هذا كنز يسوا اعداله..انگوم نوجد بغير وجع كلب..

فأكمل فرحان العبارة:

- بثواب المرحوم ابو البيه الاصيلي!!

قال احد الفلاحين لزميله:

- ابو البينه امس. ايگولون امطيح بيوته بالعجل وشايل للهور.

- الهور بيه خوش مرتع هليام.

فتساءل الملا:

- اشعجب شال للهور؟ حسبالي للصالحيه.. چان ايلح عليّ ايريد له

وصلة گاع..

قال فرحان بن سويلم:

- شيسوي بالكاع ؟ اشو الغنم طلعت كنز.. يبيعون الطلي بخمس

دنانير سته..

- يمكن.. رادها زايد خير..

قال فلاح بطيب خاطر:

- گاع بيت مهلهل چبيرة.. وما ينگصها عقد ابو البينه.

عاد الى التفكير بكتابة الخبر: وليكن وصفا مؤثرا لحماس الفلاحين يوم

امس.. وليس مجرد خبر مختصر.. انصرف له بعد الغداء مباشرة..

اتركهم مشغولين بالقهوة وانفرد مع نفسي بالبيت.. الديوانية لا تصلح

للكتابة.. ضجيجهم يشتت الذهن.

امتلات الديوانية بدخان رصاصي اللون. حاد الرائحة. ينفذ بقوة فيسيل

الدموع بغزارة. ساعده فرحان بن سويلم على تأجيج النار. أثر ان يحمس

القهوة بنفسه. ثم يترك لهم دقها وتخديرها. وضع الحب في المحماس.

اخرج الجمر المتأجج من قلب الكانون- وضع المحماس فوقه.. اخذ يحرك

الحب بـ"خاشوگه النار" حركات بطيئة سمع السيارة. توقفت ثم تابعت

سيرها الى الهور. تلفت في اركان الديوانية. ودقق النظر بعينين دامعتين

وتسأل:

- يلگاها سعد يو لا؟

اجابه فرحان:

- يمكن..

تسارعت حركات الخاشوگة تكفكف الحب من الجانبين. ثم تشطره نصفين. بحركة تنشره على صفحة المحماس. وتعود ثانية تلملم اطرافه. لتتال كل حبة قهوة نصيباً متساوياً من حرارة النار.

تذكر سؤاله لايه: مالذي يحول بيننا وبين زراعة القهوة؟ فروى الحكاية- وحذرنى من تصديقها!!-

بعد ان يحصدون القهوة يجمعون غلتها. يشرف ملك اليمن بنفسه على وضعها بصهاريج مملوءة بالماء. ويأمر جلالته بأشعال النار.. ويغلي الماء سبع ساعات ثم تجفف حبوب القهوة وتصدر الينا- وبعملية الغلي الخبيثة يحقق احتكار زراعتها في بلاده. ومرة قدر لأحدهم ان يسرق حبة القهوة قبل غليها.. وامكنه استنباتها في العراق.. فأينعت شجرة القهوة ونمت في ارض العراق.. وشاع خبرها حتى تناهى الى مسامع جلالة ملك اليمن.. فلبس جلالته جبة درويش ووضع في عنقه مسبحة تعد الف خرزة!. وسمح للحيته ان تزداد طولاً على طول. حتى صار يصعب على اكثر الناس فطنة. الشك في هيئته كدرويش. وسافر جلالته متدروشا يقطع الفيافي والقفار.. وبعد عناء ونصب.. بلغ جلالته ارض الرافدين.. واهتدى الى موضع الشجرة بخريطة- وان كنت اشك في قراءة جلالته للخريطة- وجريا على عادة الدراويش بات ليلته بعيداً عن القرية.. مكتفياً من اهلها بالوقود والماء

لغلي الشاي. وبعد ان نامت الانام- وسبحان الذي لا ينام- حمل جلالته
ابريق شاي- الذي اوقد تحته كل الحطب الذي جاد به اهل القرية
المخدوعة- وتسلسل الى شجرة القهوة المنكوبة.. وصب الماء المغلي على
جذورها.. فذوت على الفور وتهللت اوراقها. ولما اطمأن جلالته الى نتائج
فعله.. شعر براحة الضمير.. وولى الادبار- ولا بد ان يكون مسرع
الخطى..

آخ.. ياملك اليمين "يا حريص" لولا اخلاصك البليد لشعبك السعيد لما
تحتم علي ان اشترى الكيلو بسبعمئة فلس!!

دخل سعد وفي يده جريدة منشورة.. وفي اليد الاخرى حزمة جرائد
مرزومة. قال الصبي ملوحا بالجرائد:

- اليوم اهوايه.. هذني ثلاثة ملفوفات وعليهن طوابع:

فصاح الملا محذرا:

- اطرحهن لا تلعب بيهن.

نضح الزيت من حب القهوة.. بدأت القشور تنسلخ. تندفع الى اعلا.
طافية على اللهب. شاع اريج القهوة بالديوانية وامتد الى القرية- يزعم
حمزه الخلف انه يستروح عبيرها وهي في الحماس على بعد خمسة
اميال: ترى من بعث الجرائد المرزومة؟ هذا حسن جدا.. ربما ساعدتني
الجرائد مجتمعة على صياغة الخبر وجعله ريبورتاجا لطيفا.. لو بذلت عناية
اكثر...

صاح فرحان بن سويلم منذرا:

- ابو سعد.. ابو سعد.. يمعود.. احركتها احركتها ..

رفع الحماس على عجل. قلبه في الصينيه. ريثما يبرد الحب. ثم يوضع في الهاون: اخذت نارا اكبر مما ينبغي. ان يسهو المرء وفي يده عود "قاله" لا ينتج عن سهوه ضرر بليغ. اما السهو مع الحب فوق النار فلا يمكن اصلاح ضرره. الاول كائنك شارذ الذهن وانت على ظهر فرس- يمكنها السير على الدرب بلا مخاطر- ولكن شرود الذهن- واليد على مقود سيارة يودي الى دق العنق حتما!!

ترك الوجاق لفرحان.. واتخذ مكانا في كوسر الديوانية. مشوقا لرؤية الجرائد المرزومة. فض الطوق عن احداهن:.. التي يعمل في مطبعتها كامل وهذه رسالة منه:
(عنا العزيز..)

لا بد ان تكونوا بخير. ستغمرك الفرحة ولا بدا! اذا ما قرأت مقالة فاضل- اتخيلك تطيل النظر في توقيعه. مزهوا به. او لست القائل:

"عمي احنا عشائير.. ما نخلص من عشائيرتنا بسهولة..!"

استغرقت. كتابتها. اسبوعيا- ونقحها بأسبوع... وددت لو شغل بها اسبوعا اخر. لكن نصائحي وملاحظاتى ذهبت عبثا. لان حسبتي على حد تعبيره "واكفة بقضايا الفن والادب" وماذا بعد؟ ثمة اخبار قصيرة.

١- غارق في العمل حتى الاذنين.. العمل النقابي يمتص كل دقيقة زائدة عن حاجة المطبعة.

٢- الكتب الجيدة تملأ الارصفة ومعارض المكتبات "هنياه الى عنده الوكت ويقرا" واذكر لك مثال واحد: كتاب رأس المال يطالعك (ولا اقول تطالعه:) اينما تولي وجهك. حتى مكتبة فاضل ازدانت بجزئه الاول "لكن

الحجي بيناتنا.. بعده ولا قاري منه صفحة وحدة".

٣- الزمننا انفسنا بعهد. خلال جلسة عائلية مشتركة. ساهم فيها "نسيينا" محمود الخزاعي.. بأن نقضي عطلة العيد في ربوعكم الزاهرة المزهرة! كلنا بالحمل والزمل. نساء ورجال. بلا اطفال!

٤- التحيات للكبار والقبل للصغار. ومزيدا من العناية بفرحان.. والى اللقاء

(كامل)

رفع رأسه ليبلغ الحاضرين تحيات كامل. خص سويلم وكزاز بخبر الزيارة المرتقبة. عاد الى الجريدة. مر بالصفحات سريعا. بلغ الصفحة السادسة. فطالعه المقال.. "الشعر الحر.. وغدا النثر الحر- بقلم فاضل ناصر الواسطي": ولم هذه الواسطي حسبتها اندثرت مع المقامات. اذا كان لا بد من لقب. اما كان الاجدر انتسابك للعشيرة؟ العشيرة؟!

نصحت ابتساما من شفتيه. انساب يصره مع اعمدة المقالة: لم يختمها بتوقيعه. في البداية كفاية! تناول الجريدة الثانية. مزق شريط التغليف: نفس العدد هذه النسخة من فاضل دون شك. دقق النظر في الخط. فتأكد له ذلك: ربما وضع رسالة في طيات الجريدة.. لم يعثر على شيء. تناول الثالثة. بدا له الخط غريبا.. العدد ذاته. من بعث هذه النسخة؟ تملى الحروف المبعثرة فوق شريط التغليف: هو نفسه تعمد تشويه الخط. "ابو الويو!" سأحتفظ بالنسخ واوراق التغليف.. لا- يا ابو الويو! امسكتك بالجرم المشهود.. نسخة صريحة وثانية متلصصة لم كل هذا؟

انفرجت شفته عن ابتساما رقيقة.. فتساءل سويلم الصغر:

- هاه.. اشبيها.. كمت تضحك؟

- هيچ

- اللّٰه عليك كول. بداعة سعد.

- فاضل كاتب مقال "مهم".

- مهم؟!

لهوج كُزاز الصكر:

- اقراه اقراه بروح والدك..

- انتذروني- اخلصه قرايه. واعيده عليكم..

- انصره يا ربي..

ودعا سويلم كذلك لابن اخته:

- وفقه يا ربي "مهم" وبالجرايد.. عل اسعوده يا ربي..

انصرف الملا لمطالعة المقال:

(لا اعتزم الدخول طرفا في الحوار- القديم المتجدد- الدائر بين خصوم

الشعر الحر وانصاره. بيد ان الهوامش المخلصة "المحايدة" تلقي مزيدا من

الحقائق الموضوعية..)

بدأ الخداع منذ السطر الاول! حماسك للشعر الحر بلغ درجة التعصب.

وبراهينك على افضليته لما تزل اصداؤها في انني.. وحكاية المحراث

الخشبي والجرار الميكانيكي- في قطعة الارض الضيقة لن انساهها ابدا..

(ان اساليب التعبير الفنية الموروثة. لم تعد قادرة على استيعاب مضمون

العمل الفني المعاصر..)

أخ.. من هذه المعاصرة.. مثل كتاب فتاح الفال: شحروت شمروت
طارشهم يو بالحى يو بالكزيت..منحوس مدحوس اذبح ديج يا نديس! وانى
لم اعترض ان يعترض ... ويدعي العلم بلغة الجن والملائكة!؟

(والشعر الحر من بين وسائل الفكر. اكثر ادوات التعبير الانساني
حساسية. لا يحتمل التجميد والقولبة. فالينبورج لا يتدفق....)

اما استيعاب المضمون "يا ابو عباس" فلا اظن "الغريب" قصيدتك اياها.
اصلح لاستيعاب مضمون العصر.. والمعاصرة
- جبة السيد حسن الكربلائي تغطي جسمه وملابسه وبها فضلة
لاخفاء خروفين تحت ابطيه..!

لم تستعمل المحراث الخشبي والجرار الميكانيكي في قطعة الارض-
الضيقة هذا مفهوم .. لقد كنت تخاطب فلاحا.. وتخاطب اليوم مثقفين-
فأخذت الحمامة مثالا.. ولن انسى الرعب الذي اشاعته الشرطة في البيت.
صعدوا الى برج الحمام " ان لا يقتني غير الحمام الابيض.. يطلقه في
احتفالات انصار السلام السرية وقد انطلق السرب من البستان وحوم
هنا.. ذبحوا البعض وسرقوا البقية.. واقتادوك الى مركز الشرطة! وقالت
امك: لو اکتفوا بذبح الحمام.. ولم يوقفوه.. لفرحت اذن. كنت اتشاعم من
هديل الحمام في الليل.

ابرق ثغره بأبتسامه. لعبور الذكرى. فقال حمزه الخلف. ولما يمض على

حضوره سوى دقائق:

- اشرچنا وياك بالضحچ.. چا غير اتكولون اشتراكيه! احنا حرمونا
أهلنا من القرابه والكتابه..وانتم حظكم عدل وتعلمتوا.. ياللّه اشرچنا وياك..
گول ليش ضحكت؟

استمهله ريشما ينتهى فرحان من دق القهوة. حينذاك يكون الجو انسب
للقراءة. وانكب على الجريدة مرة اخرى:

فأذا سلمنا بضرورة تطور ادوات التعبير. لتطابق المضامين المتجددة.
ومعطيات العصر. التكنيكية.. يغدو نثر الغد مختلفاً عما هو متداول الان.
فيوم تبلغ خيرات الثقافة اقصى زاوية في المعمورة. ويصبح لكل قرية
ومدينة جريدتها اليومية. يحررها جهاز اوتوماتيكي. وليكن اسمه.. "الراديو
بريس او التلبريس" يحول الكلمات المسموعة الى حروف مقروءة وينقل
احداث العالم المثيرة الى صور ملونة مشروحة. وعهد ذاك يكون الشك قد
اختفى تماما. ورسخت الثقة المطلقة على الارض. فلا رويتر ولا يوناييتد
برس ولا اسوشيتدبرس- كان ذلك ايام زمان.. كان على المرء ان يقرأ
الخبر مرتين.. يشطفه ثلاثا.. ويدققه اربعا.. ثم يحك رأسه ويتساءل: اين
بقية الدس الرخيص اذن؟! لقد ولى ذلك العصر الاسود. ونعيش اليوم في
عهد الثقة المطلقة- تنتشر على الارض مراكز البث الصحفي. المتنوعة في
اختصاصاتها. يوحدھا مضمون انساني رائع. مثل النسيم العليل يتنشقہ
كل ذي رتتين. وعامل فني واحد يتولى تحرير صحيفة القرية. مهمته تحويل
مؤشرات التلبريس من مركز لآخر حسب الحاجة والطلب. ويومها تندثر

اسماء الورق المعروفة الان وتحل محلها اسماء جديدة.. حيث تطبع الصحف على رقائق من القيمر والزبدة والجبنة.. ولذلك تراهم يتزاحمون على باب الجريدة. قبل طلوع الشمس. ليقراً كل منهم محتويات جريدته ثم يطويها مع رغيفه غموسا شهيا "للريوك" ويقسم خالي. بسويلم الصكر. بالعباس ابو فاضل. بعد تناوله الجريدة:

- چني صرت افتهم.. ولوما اقرا واكتب.. ولكن الحچني المكتوب على الكيمر. من صار ابطني سواني مثل ملا نعمه! ويسألهم محمود بن شنين عن محتويات جريدة اليوم.. ان غالبية قصائد شعر. وعندها يضحك حمود عاليا ويقول:

- من هذا.. اشوف روجي چني صرت شاعرا!

وفي قهوة المساء. يتسألون عن نوعية ورق الجريدة غدا:

- باچر شنهي جريدتنا؟

- كيمر.

- ليش ما ايسويها جبن؟

فيرد اخر:

- لو بيدي جنت اطلب زبدا!

واذا بلغنا تلك المرحلة من التطور الشامل. فهل يستجيب نثر اليوم لحاجات الغد المتصور؟ ان كلمات جديدة. وتراكيب متطورة. سوف تنمو وتزدهر في قلب التلبريس. وتفرض نفسها كما يفرض الربيع دفئه وازهاره.. ومن المؤكد في نثر الغد من الموسيقى والعذوبة ما يحسده عليه

شعر اليوم.

وعهد ذلك يكون الحوار عن الشعر الحر قد صار من جملة تراثنا المجيد الخالد. ويطغى حوار بديع بين مصممي اجهزة البث والاستقبال الصحفي. ولكن ربما تطفل واحد مثلي. لا هو بالشاعر ولا هو بالناثرا!. فأقحم نفسه على العلماء. بملحة ولجاجة. مطالباً بتلقين الاجهزة بعض الالفاظ والتراكيب. مستنكراً اسقاط الكلمات المنقرضة مثل: القضية الاساسية. الطموحات. الجماهير المسحوقة. دماثة الخلق. والتواجد واللاتواجد والمتواجدون. الرفض من الداخل. المدود الثورية المعطاءة.....

طرح الجريدة جانبا بعد ان انهى قراءتها. واعلن بصوت جهوري:

- طلعت من حگها ابو عباس!

ثم تمطى ليستعيد حيويته ونشاطه. استعدادا لقراءتها ولتفسيرها.

وقبل ذلك التفت الى حمزه وسأله مداعبا:

- گلي بروح والدك.. يا هو احسن بنذرك..الشعر الحر يو الشعر

العمودي؟

ضحك حمزه واجاب:

- احسنهن كلهن الشعير! معلومك هليام الشياہ محتازات العلف

كلهن. وما يعجبني غير الشعير "الصبر گلان" !

مر سريعا على المقدمة ولاحظ عدم احتفائهم بحكاية الشعر. ولبا بلغ معابثات فاضل لاهل البترا. ضجت الديوانية بالضحك.. واستأثرت بأنتباههم جريدة المستقبل.. وغدت مادة صالحة للمزاح. اغتنمها فرصة. وراح يقلب صفحات الجريدة. عن اخبار الاصلاح الزراعي. عثر على خبر

مناسب:

".. اهتزت الارض تحت اقدام الفلاحين وهم يهزجون استبشارا بمقدم لجنة الاستيلاء.." هذا مستهل رائع. انقله حرقيا.." ونحرت الذبائح تحت اقدام اعضاء اللجنة.." عض شفته بقسوة. وقال ندما ما كان ينقص احتفالنا غير نحر الذبائح..
وكان بوسعنا ان "نقترض!!" ذبيحتين او ثلاث من غنم الشيوخ!!..

تنويه

سقط سهواً في ظهر غلاف (غنم الشـيـوخ) الفقرة التالية
فقد ارتأت شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة ان تعيد
طبع هذه الرواية مجدداً لرغبة شـرائح عريضة من
القراء وخدمة لنشر وتعميم الثقافة والأدب الملتزم.
لذا أقتضى التنويه

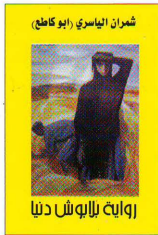
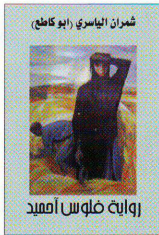
قالوا - عن هذه الرواية

* يقول الروائي غائب طعمة فرمان : في عام ١٩٦٩ حين عدت الى العراق وبعد غيبة تسع سنين ، تعرفت على (ابو كاطع) في احدى مقاهي شارع السعدون ببغداد ، وبدا وكأن أحدنا يعرف الآخر منذ عهد نوح - وهذا التعبير مستلهم من روح (ابو كاطع) - وعندما افترقنا أسر لي (ابو كاطع) بأن لديه محاولة لكتابة رواية، وسالني بتواضع ممزوج بالثقة عما اذا كان لدي الوقت لاقراء بعض ما كتبه ، وأعطيه رأيي الصريح ، فيما اذا كان من الممكن أن يسمى ذلك رواية أم (خرط) - كلام فارغ - وفي اللقاء الثاني جاء بدفتر سميك . وفي بيتي حين اخذت أقرأ الدفتر ، بدأ يتنامى في خيالي عالم متجدد رحب مغمور بأنفاس الريف وأناسه ، صنعه قلم ذو دراية ممتازة بما يريد ان يقول وحب عارم للوسط الذي يصوره ، ومعرفة مستيقضة بخبايا الحياة الريفية وحنايا سكانها الواقعيين الى حد احساس القارى بانفاسهم تدفئ قلبه.

* يقول الصحفي والروائي (زهير الجزائري) : لقد كانت الرواية العراقية قبل (ابو كاطع) وان كان بعضها يتحدث عن الريف ، الا انها لم تكن ريفية ، بل انها ابنة مدينة ، فالرواد أمثال محمود أحمد السيد ، سليمان فيضي ، جعفر الخليلي ، ذو النون أيوب ، وبعدهم عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي وغائب طعمة فرمان ، جميعهم أبناء مدينة.

* نظراً لأهمية هذا العمل الادبي (رباعية ابو كاطع) الذي يوثق ويؤرخ لحقبة طويلة من تاريخ العراق والحراك السياسي والاجتماعي في الريف في الفترة الممتدة بين عشرينات وستينات القرن الماضي ، فقد

رباعية ابو كاطع



شركة دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٨٢٤ بغداد لسنة ١٩٧٢ - الطبعة الثانية ٢٠٠٧